الفصل الثّالث عشر

آداب المرأة المسلمة في القرآن الكريم

البحث الأوّل:

أدبُ إسلام الوجه لله تعالى

أختي المؤمنة:

إقامة الوجه لله - أو إسلام الوجه لله - خُلُقٌ من أخلاق القرآن الحكيم، وفضيلةٌ من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصّلاة والتّسليم، وهو خُلُقٌ ينهض على أساس التّوحيد لله، والإخلاص في طاعته، واللجوء إليه على الدوام، والرجاء منه في كل حال، وعدم الالتفات إلى سواه، وقد تحدث التّنزيل المجيد عن هذا الخُلُق في مواطن كثيرة، فمن ذلك قوله في سورة البقرة:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

وأسلَمَ هنا معناها: استسلم وخضع وفوّض، وأخلص عمله لبارئه، أو كما يُعبر «تفسير المنار»: إسلام الوجه لله هو كمال التوجه إليه وحده، وتخصيصه بالعبادة دون سواه، كما قال في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢).

وقد عبّر عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشّيء بإسلام الوجه، كما عبّر

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

obeikandl.com

بتوجيه الوجه، أو إقامة الوجه في مواطن أخرى، كما سنرى بعد قليل، وذلك لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه، فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعاً لقصده، واشتغال القلب به، عبّر عنه به، وجعل التّوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة - وهي القبلة - بأمر الله مذكراً بإقبال القلب على الله الذي لا تُحدِّدُهُ الجهات.

فالإنسان يتضرّع ويسجد لله تعالى بوجهه، وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع.

والمراد من إسلام الوجه لله إفراده بالعبادة والإخلاص له، بأن لا يجعل الإنسان بينه وبين ربِّه وسطاء يُقرّبونه إليه زُلْفَى، فإنّه أقرب إليه من حبل الوريد.

ويقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[١].

أي: أخلصَ دينَهُ، وخضعَ له، وتوجّه إليه في العبادة، وكان له مثل أعلى في إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الرحمن، الذي كان محباً لله، وكان محبوباً لله، ولا أحد أحسن ديناً ممن جعل قلبه سالماً خالصاً لله وحده، لا يتوجه إلى غيره في دعاء أو رجاء، ولا يرى في هذا الوجود إلا آثار صفات الله وسننه، فلا يطلب إلا من خزائن رحمته، وهو مع إيمانه وتوحيده، محسن في عمله، متخلق بأخلاق الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

والإمام محمد عبده يقول: إن العبرة عند الله بالقلوب والأعمال، وملّة إبراهيم الحنيفية هي الصفوة في إخلاص التّوحيد وإحسان العمل، وعبر عن توجه القلب بإسلام الوجه، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النّفس من الإقبال والإعراض، والسّرور والكآبة، وغير ذلك، ويقول التّنزيلُ الحكيمُ في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾[٢].

والمقصود من الدين إنما هو الوفاء بلوازم الربوبية، فإذا أسلمت وجهي لله لا أعبد غيره، ولا أتوقع الخير إلّا منه، ولا أخاف إلّا من قهره وسطوته، ولا أشرك به أحداً، كان هذا هو تمام الوفاء بلوازم الربوبية والعبودية.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

ويذكر الفخر الرازي في معنى إسلام الوجه لله ثلاثة أقوال:

الأول: أخصلت عملي لله. يُقال: أسلمتُ الشيء لفلانٍ، أي: أخلصتُه له، ولم يشاركه فيه غيره.

الثاني: أسلمتُ وَجْهَ عملي لله، فكل ما يصدر منّي من الأعمال، فالوجه في الإتيان بها هو عبوديتي لله تعالى، والانقياد لإلهيّتِهِ وحُكْمِهِ.

الثالث: أسلمتُ نفسِي لله، وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام النّفس لله، فيصير العبد كأنّه موقوفٌ على عبادته، عادِلٌ عن كلّ ما سواه.

وقيل: إن معنى الآية السّابقة: إن جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات، فأسند أمرك إلى ما كلفت به من الإيمان والتبليغ، وتوجه إلى الله بذاتك، كما جاء في الحديث الشريف: «سجد وجهي للذي خلقَهُ وصوَّرَهُ»، وكأنّ النّص الكريم يقول - كما يعبر بعض العلماء العاملين -: أنّ من يقصد إلى الحجاج، بعد تأييد الحق، وتفنيد الباطل، لا يقصد إلّا المجادلة والمشاغبة، لمحض العناد والمشاكسة، وذلك شأن المبطلين، وأمّا طالبُ الحقّ فإنّه يخل بالوقت أن يضيع.

ولقد تعرّض الفخرُ لمعنى إسلام الوجه لله عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

وذكر في ذلك وجوهاً:

أوّلها: أنّ الوجه أشرف الأعضاء، من حيث أنّه معدن الحواس والفكر والتخيّل، فإذا تواضع الأشرف، كان غيره بالتواضع أولى.

ثانيها: أن الوجه قد يكنى به عن النفس، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الليل، الآية: ٢٠.

ثالثها: أن أعظم العبادات هي السّجدة، وهي إنّما تحصل بالوجه، فلا جرم خص الوجه بالذكر، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نُفيل:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له الأرضُ تحمل صخراً ثقالاً
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له المُزْنُ تحمل عَذْباً زُلالاً

فيكون المرء واهباً نفسَهُ لهذا الأمر، باذلاً له.

وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء، وذلك لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النّفس في طاعته، وتجنّب معاصيه.

ومعنى: لله أي: خالصاً لله، ولا يشوبه شرك، فلا يكون عابداً مع الله غيره، أو معلّقاً رجاءه بغيره، وفي ذلك دلالة على أن المَرْءَ لا ينتفع بعمله إلّا إذا فعله على وجه العبادة في الإخلاص والقُرْبة.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: لا بدّ أن يكون تواضعه لله بفعل حسنٍ لا بفعل قبيح، وبيّن أن من جمع بين الأمرين: الإخلاص والإحسان، فله ثواب عظيم عند ربّه، وفوق هذا لا يلحقه خوف من مستقبل، ولا يناله حزن من الحاضر أو الماضي.

وفي سورة الأنعام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وهذا الكلام على لسان أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام؛ أي: وجهتُ عبادتي وطاعتي لربّي وذلك لأنّ من كان مطيعاً لغيره، منقاداً لأمره، فإنّه يتوجه بوجهه إليه، فجعل توجيه الوجه كناية عن الطاعة.

وإنّما جعلتُ وجهي خالصاً لله، لأنّه الذي أبدعَ خَلْقَ السّموات والأرضِ وما فيهنّ، وأكمل خلقهنّ أطواراً.

ويقول الحق جلّ جلاله في سورة الأعراف: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

أي: أقبلوا على مساجد الله، وعلى الصّلاة فيها بإخلاص، والإخلاص يقتضي تجرد النّيّة، ولذلك يقول الرسول عليه الصّلاة والسّلام: «إنّما الأعمالُ بالنّيّات»(١).

ويقول ﷺ: «إنّ الله لا ينظرُ إلى صوَرِكُمْ ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظرُ إلى قلُوبِكُم ونيّاتِكُم»(٢).

والمعنى: أعطوا لربكم توجهكم عند كل مسجد تعبدون الله فيه، مع صحة النية، وحضور القلب، وصرف الشواغل، وادْعُوه مخلصين له الدّين. ولنتذكر أن كلّ شيءٍ من أعمالِ العبادِ هَالِكٌ وباطلٌ، إلّا ما أُريد به وجه الله، ولذلك يقول الله تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

ويقول في سورة يونس: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

وإقامة الوجه هنا كناية - كما يقول الرازي - عن توجيه العقل بالكلية إلى الطلب الدّين، لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء فإنّه يُقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يصرفه عنه بالقليل ولا بالكثير، لأنه لو صرفه عنه ولو بالقليل، لبطلتْ تلك المقابلة، وإذا بطلت فقد اختل الإبصار، فلهذا حسن جعل إقامة الوجه للدّين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين، وحنيفاً أي: مائلاً إليه ميلاً كليّاً، معرضاً عمّا سواه إعراضاً كليّاً، ويتحقق ذلك بالإخلاص التام، وعدم الالتفات إلى غيره.

ويقول في التنزيل الحكيم في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) حديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحه.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٥.

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١). أي: أقبل بكلك على الدين، مائلاً عن كل ما عداه، والزم فطرة الله، وهي فطرة التوحيد. وكذلك يقول في السورة نفسها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾(٢).

ويقول في الذكر المجيد في سورة الإنسان: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(٣). وقد جاءت في تفسير «مفاتيح الغيب» عند هذه الآية الكريمة العبارة التالية: «الإحسان إلى الغير تارة يكون لأجل الله تعالى، وتارة يكون لغير الله تعالى، إما طلباً للمكافأة، أو طلباً لحمد وثناء، وتارة يكون لهما، وهذا هو الشرك، والأول هو المقبول عند الله تعالى، وأمّا القسمان الباقيان فمردودان.

قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾(٥). ولا شك أنّ التماس الشكر من جنس المَنّ والأذى».

إذا عرفتِ هذا فنقولُ: القوم لما قالوا: إنما نطعمكم لوجه الله، بقي فيه احتمال أنّه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(٦).

ولإقامة الوجه لله ثمرات أشار القرآن إلى جانب منها حين قال في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٧).

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى ثلاث ثمرات، هي:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٥) سورة الروم، الآية: ٣٩.
(٦) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

opelkandol.com

١ - نيل الأجر الجزيل، واستحقاق الكرامة في دار الإقامة.

٢ - عدم الخوف من الآخرة.

٣ - عدم الحزن في الجنّة.

وتحقق تلك الثمرات - كما نفهم من النص الكريم - باجتماع أمرين، هما التوحيد النابع من الإيمان الخالص، وإحسان العمل.

وأما غير المؤمنين فهم نهب الخوف والحزن، ولا شك - كما يقول تفسير المنار - أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأساؤوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية.

ترى أصحاب النزعات الوثنية أو الإلحادية في خوف دائم حتى ممّا لا يخيف، لأنّهم يعتقدون ثبوت السّلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم من عمل لا يهتدون إلى سببه، ولا يعرفون تأويله.

يستجدون للدجالين والمشعوذين، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة، إذا ظهر لهم نجم مذنبٌ، تخيّلوا أنّه منذرٌ يُهددهم بالهلاك، وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد، توهموا أنّها من تصرف بعض العباد، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث، ونزول الكوارث، لا يصبرون في البأساء والضرّاء، ولا ينفقون في الرخاء والسّراء:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(١)].

ويلح التفسير في البيان فيقول: إن هذه حال من فقد التوحيد الخالص، وحرم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا:

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[(٢)].

وإنما كان صاحب النزعات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن مما ينزل

---

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩-٢٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

به، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه، ويجعلها حجاباً بينه وبين ربّهِ، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها، وما هو من سلطتها على يقين، وإنّما هو من الظانّين أو الواهِمِين.

وأمّا ذُو التّوحيد الخالص فهو يعلم أنّ لا فاعل إلا الله تعالى، وأنّه من رحمته قد هدى الإنسانَ إلى السُّنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله، فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه، واجتهد في تلافيه من السُّنَّة التي سَنَّها الله تعالى لذلك، فإن كان أمراً لا مردَّ له، سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم، فلا يحار ولا يضطرب، لأن سنده قوي عزيز، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء، فإذا نزل به سبب الحزن، أو عرض له مقتضى الخوف، لا يكون أثرهما إلّا كما يطيف الخاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(١)].

ومن ثمرات إقامة الإنسان وجهه لله تبارك وتعالى النجاة والأمان، والتّرقي إلى أعلى الدرجات والاستمساك بحبل متين لا ينقطع، لأن أوثق الأسباب هو جانب الله، وكل ما عداه هالك ومنقطع:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾[(٢)].

اللّهم إنّا نسألك بفضلك وطَوْلك وحولك أنْ تقيم وجوهنا لك وحدَكَ، وأن ترزقنا الإخلاصَ في عبادتِك، إنّك أنتَ البَرُّ الرحيمُ[(٣)].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.
(٣) أخلاق القرآن، ج٥، ص ١٠٧-١١٧.

البحث الثاني:

أدبُ العبودية لله تعالى

أختي المؤمنة:

لقد ذكر القرآن الكريم مادة العبودية والعبادة في عشرات من الآيات، وأرشدنا إلى أنّ العبادة لله هي غاية العباد التي خلقهم لها، فذلك حيث يقول في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[(١)]. وهذه العبادة يجب أن تكون مقصورة على الله، ومن هنا نهى الحديث عما يشعر - ولو في الظاهر - بأن هناك عبودية لغير الله، فقال: «**لا يقل أحدُكم لمملوكه: عبدِي وأَمَتِي، وليقُلْ: فتَايَ وفتَاتي**» لأن المستحقّ لذلك إنّما هو الله وحدَهُ لأنّه رب العباد[(٢)].

والعبودية نوعان: عامّة وخاصّة، فالعبودية العامّة هي خضوع أهل الأرض والسّمٰوات كلّهم لجلال الله وقهرِه، وقد أشار القرآن إلى هذا النوع في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[(٣)]. والعبودية الخاصّة هي عبودية الطّاعة والمحبّة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾[(٤)] فهؤلاء العباد هم الذين خضعُوا لربهم طوعاً واختياراً.

و«العبودية» حليةُ المؤمن الذي يُوقن بوحدانية ربِّهِ، ويوقن بلقائه وجزائه فهو

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦-٥٨.
(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، المختصر برقم ١٤١٣.
(٣) سورة مريم، الآية: ٩٣.
(٤) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

يستعدّ دائماً لهذا اللقاء بالعمل الصّالح، واجتناب الإشراك بالله سبحانه، ولذلك يقول تعالى في القرآن في سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١). ويقول في سورة البيّنة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾(٢).

ولسموّ فضيلة «العبودية» جعلها القرآن الكريم صفة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين، فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾(٣). وقال في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٤). وقال في سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾(٥). وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(٦). وقال في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾(٧) جموعاً متزاحمة متراكمة عليه. وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾(٨).

والعبد المرادُ في هذه الآيات الكريمة هو رحمة الله للعالمين سيدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام، وكان من الممكن أن تصفه الآيات هنا بالنبوة أو الرّسالة أو الرحمة أو غير ذلك من الصّفات السّامية الدّالّة عليه، ولكن الآيات آثرت وصفه في هذه المواطن الشريفة الكريمة بصفة «العبودية» لأنها أشرف الفضائل التي يفخر بها رسولُ الله صلوات الله وسلامُهُ عليه أمام خالقه تبارك وتعالى.

ومن هنا قال النّبيُّ ﷺ: «لا تُطْرُوني كما أطْرَتِ النّصارَى المسيحَ ابْنَ مريم، فإنّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسولُهُ»(٩). وحينما سألته عائشة عن اجتهاده في

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) سورة البيّنة، الآية: ٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٥) سورة الكهف، الآية: ١.
(٦) سورة الفرقان: الآية: ١.
(٧) سورة الجن، الآية: ١٩.
(٨) سورة الأنفال، الآية: ٤١.
(٩) صحيح البخاري برقم ٣٤٤٥.

طاعة ربّه وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أجاب: «**يا عائشة، أفلا أكونُ عَبْداً شَكُوراً**»(١).

وكذلك جعل القرآن الكريمُ فضيلة «العبودية» صفةً وخُلُقاً للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال في سورة صٓ عن داود: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾(٢). وقال في السورة نفسها عن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾(٣). وقال فيها عن أيوب: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾(٤). وقال فيها: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٥). وقال عن زكريا في سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾(٦). وقال في السورة ذاتها عن عيسى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾(٧). وقال في سورة الإسراء عن نوح: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(٨). وقال في سورة التحريم مشيراً إلى نوح ولوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾(٩).

ويمضي القرآن بعد هذا في التنويه بشأن فضيلة العبودية فيصف بها «الخضر» حيث يقول في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(١٠).

ثم يصف بها الأبرار الأخيار من المؤمنين المستجيبين لله تعالى، فيقول في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾(١١) إلى آخر السورة، ويقول في سورة الزخرف: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(١٢). ويقول في الإسراء مخاطباً الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾(١٣).

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٨١٩.
(٢) سورة صٓ، الآية: ١٧.
(٣) سورة صٓ، الآية: ٣٠.
(٤) سورة صٓ، الآية: ٤١.
(٥) سورة صٓ، الآية: ٤٥.
(٦) سورة مريم، الآية: ٢.
(٧) سورة مريم، الآية: ٣٠.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٩) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(١٠) سورة الكهف، الآية: ٦٥.
(١١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(١٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٨.
(١٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

وهكذا يُشعرنا حديثُ القرآن عن العبودية بأنّها إحدى المنازل السامية التي يتطلّع إليها الأبرار من المؤمنين، ويفاخرون بها، ولذلك قال قائلهم يناجي ربّهُ عزّوجلّ:

ومـمّـا زادنـي شـرفـاً وتـيـهـاً   وكـدتُ بـأخـمـصـي أطـأ الـثـريـا
دُخولِي تـحـت قـولِـكَ يـا عـبـادي   وأنّ صـيّـرت أحـمـدَ لِـي نَـبـيّـا

ولا عجب فالعبودية هي أعلى مراتب الدّين وأرقى درجات الطاعة، وإلى هذا يشير قول سيدنا رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «**الإحسانُ أنْ تَعْبُدَ الله كأنّكَ تَرَاهُ، فإنّ لم تكُنْ تَرَاهُ فإنّه يَرَاكَ**»(١) (٢).

البحث الثالث:

أدَبُ الطّاعة والانقياد لله تعالى

أختي المؤمنة:

الطّاعة لها معنى دينيّ، ينصرف إلى الائتمار بأوامر الله تعالى، ولها معنى أخلاقي وهو التّقيّد بالواجب، ومجاوبة من يدعو إليه باستمرار، وبهذا المعنى تصير الطاعة خلقاً، وتصبح فضيلة من فضائل القرآن الكريم، لأنّها تثمر المبادرة إلى الاستجابة كأنها عادة أو طبيعة.

ولقد ذكر القرآن مادة الطاعة في أكثر من مائة موضع، وجعلها الحق جل جلاله صفة بارزة من صفات المؤمنين، ولذلك يقول على لسانهم في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣).

أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، أو سمعنا قول الله وقول رسولِهِ سماعَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في حديث طويل.
(٢) أخلاق القرآن، ج١، ص١٤٦-١٤٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المطيعين، وليس كالكافرين الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(١). ويقول الطبري عن الآية: سمعنا قول ربنا وأمره إيانا بما أمرنا به، ونهيه عما نهانا عنه، وأطعنا ربنا فيما ألزمنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته وسلمنا له.

ولقد تكرر في التنزيل المجيد الحديث عن طاعة الله ورسوله، لأن طاعة الله هي الأساس، وطاعة الرسول من طاعة الله، فقال الله في سورة آل عمران: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

وقال في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٣).

وقال في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤). أي: سمعنا ما قيل لنا، وأطعنا من دعانا إلى حكم الله عز وجل، وقال في سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾(٥). إن تأتمروا بأمر الله وأمر رسولهِ لا يظلمكُمْ من أجورِ أعمالكم شيئاً، وقد أكد الحديث الذي رواه مسلم هذا المعنى، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ﴾(٦). كما أكّد القرآن أن طاعةَ الرّسولِ من طاعةِ الله، فقال في سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٧) بل عمم القرآن هذا الحكم على جميع المرسلين فقال في سورة النساء أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٨).

وقد جاء في سورة الشعراء عدة مرات في القرآن على لسان المرسلين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾(٩).

وفيما يتعلق برسولنا محمد عليه الصّلاة والسّلام روى ابن حنبل الحديث:

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٥١.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٧١.
(٧) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٨) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٩) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٧-١٠٨.

«من أطاع نبيه كان من المهتدين». وجاء قول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «**من أطاعني دخل الجنة**»(١). وجعل الرسول الطاعة لأميره الذي ولاه من صميم الطاعة للرسول، فروى البخاري قوله ﷺ: «**مَنْ أطاعَ أميرِي فقدْ أطاعنِي**».

والطاعة المأمور بها في الإسلام أنواع وألوان، فهناك طاعة الله، وطاعة الرّسول ﷺ، وطاعة أولي الأمر، وطاعة الوالدين، وطاعة القائد أو الأمير، وطاعة النّاصح، وقد روى الإمام ابن حنبل الحديث القائل: «**أطعْ أبَاكَ**». ومن باب أولى طاعة الأم، لأن حق الأم مقدم على حق الأب في الإحسان وحُسْن المعاملة والطاعة، ولقد صح أن صحابياً سأل رسول الله ﷺ: مَنْ أحقُّ النّاس بحُسْنِ صحابتي يا رسولَ الله؟ قال: «**أمُّكَ**». قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أمُّكَ**». قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أمُّكَ**». قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أبُوكَ**»(٢).

ولكن طاعة الوالدين في الإسلام مشروطة بأن تكون في دائرة ما أباحه الله، أما ما حرمه فلا طاعة فيه على الابن للأبوين، يقول الله تعالى عن الأبوين في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾(٣).

يقول الطبري: وإن جاهدك أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي مع غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك - ولا شريك له تعالى ذكره علواً كبيراً - فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي.

ومن أنواع الطاعة في الإسلام طاعة المرأة لزوجها، والحديث يقول: «**خير النساء من إذا أمرها زوجها أطاعته، وإذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه**». ولكن الطاعة هنا أيضاً مشروطة بأن لا تكون في معصية، فقد روى البخاري قول رسول الله صلوات الله وسلام عليه: «**لا تطيع المرأة زوجها في معصية**».

(١) حديث صحيح.
(٢) حديث صحيح.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٥.

ونفهم من حديث القرآن أن ثواب الطاعة جزيل جليل، ومن ثوابها ظفر الإنسان بالكرامة العظمى من الله جل جلاله، وحصوله على الفوز العظيم من الله ولذلك يقول القرآن في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

أي: من يطع الله ورسوله في العمل بما أمره الله به، والوقوف عند ما حده له، ويجتنب ما نهاه عنه، يدخله جنات تجري من تحت غروسها وأشجارها الأنهار، باقين فيها أبداً، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، ولا يفنون وذلك هو الفوز العظيم.

وقد عاد القرآن إلى تأكيد هذا المعنى فقال في سورة النور: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٢).

من يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله، ويتق عذاب الله، فأولئك هم الفائزون يرضى الله تعالى عنهم يوم القيامة وبنعيمه العظيم، وأمنهم من عذابه الأليم.

ومن ثمرات الطاعة الحصول على الأجر الحسن والثواب الجميل، ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة الفتح: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾(٣).

أي: إن تطيعوا الله في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى الجهاد، يعطكم الله على إجابتكم أجراً حسناً عظيماً، وهو الجنة.

ومن ثواب الطاعة حسن الصحبة في الجنة مع أهل الشرف والمكانة، فذلك حيث يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾(٤).

أي: من يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما،

(١) سورة النساء، الآية: ١٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

obeikandi.com

والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته، والتوفيق لطاعته في الدنيا وفي الآخرة، إذا أدخل الجنة، مع النبيين وأتباعهم الصديقين، الذين صدقوهم واتبعوا منهاجهم، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، والصالحين الذين صلحت سريرتهم وعلانيتهم[(١)].

البحث الرابع:

أدَبُ الإنابة إلى الله تعالى

أختي المؤمنة:

«الإنابةُ» كلمةٌ تُفيد معنى الرّجوع والإقبال، يُقالُ: أنابَ ينيب إنابةً فهو مُنيبٌ، إذا أقبل ورجع، والإنابة إلى الله جلّ جلالهُ هي الرجوعُ إليه بالاستغفارِ، والمتابِ، وإخلاص العمل لوجهه، والتزام بابه، وفي الإنابة أيضاً معنى المسارعة بالعودة إلى الله، والثبات على كلمته كلما همّ الشيطان أن يوسوس للإنسان، بالإعراض عنه أو النسيان له، ولذلك قال السلف: المنيب هو الذي يعود سريعاً إلى ربه، وكأن معنى الإنابة سيتجدد ويتأكد ويتكرر، لأن الوسوسة مستمرة، فلا بد من استمرار الاعتصام بباب الله واللجوء إلى الإنابة في كل وقت، وبهذا تكسب الإنابة صفة الفضيلة الأصيلة والخلق الكريم، فالمنيب هو الذي يسارع إلى طاعة الله ومواطن مرضاته، ويرجع إليه في كل وقت، ويبذل طاقته ليلتزم طاعته.

ولقد جاء ذكر الإنابة في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم، والله تبارك وتعالى يدعوُ إليها عبادَهُ وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون، فيقول لرسوله

(١) أخلاق القرآن، ج٥، ص: ٢٠٥-٢١٠.

صلوات الله وسلامه عليه ومن ورائه أتباعه في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾[1]. ويقول في سورة الزمر: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[2]. وفي سورة لقمان: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]. فالله جل جلاله يأمر عبده المتجيب بأن يسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والإخلاص في الطاعة، ومن سلك طريق المنيب فقد صار مثله منيباً، فكأنه قال له: اسلك طريق الإنابة وكن معيباً. ومن سمو فضيلة الإنابة جعلها الله عزّ شأنه صفة لأنبيائه ورسله، فقال عن خليل الرحمن إبراهيم في سورة هود: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[4]. والحليم هو غير العجول على الانتقام من المسيء، والأوّاه هو كثير التأوه من الذنوب، والتأسف على الناس، والتضرّع إلى الله، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منيباً: أي: كثير الرجوع إلى الله، يرجع إليه في كل أمر.

وكذلك قال الله تعالى عن نبيه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة هود: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[5]. أي: أقبل عليه بكل حسي ونفسي، وإليه وحده أرجع في كل ما نابني من الأمور في الدنيا، ومنه وحده أطلب ثوابي على أعمالي، فأنا لا أرجو منكم أجراً، ولا أخاف منكم ضراً وعلى ربي أقبل بطاعتي، كما أرجع إليه بتوبتي.

ويقول القرآن الكريم عن سليمان في سورة صٓ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[6]. ويأمر الله تعالى نبيَّهُ محمداً ﷺ أن يبلغ عباده قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ

(١) سورة الروم، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٤.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٥.
(٤) سورة هود، الآية: ٧٥.
(٥) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٦) سورة ص، الآية: ٣٤.

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١). أي: عليه توكلت واعتمدت في مجامع الأمور، وإليه أرجع في كل الشؤون.

وقد جعل القرآن الكريم فضيلة الإنابة علامة الاهتداء وعنوان الاستقامة على الطريق وشارة الذين يتفكرون ويتدبّرون فيعرفون، فيستجيبون لنداء الحق ودعوة الصّدق، فيقول في سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾(٢). وأكّد كتابُ الله هذا المعنى حين قال تعالى في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٣). أي: من يتقبل الحق ويرفض العناد، ولهذا كانت الإنابة من فضائل الإنسان المتدبّر المتذكّر المعتبر، فقال الله تعالى في سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾(٤). ويقول في سورة قَ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾(٥). فكأن الإنابة مِعْواناً على استجلاء الدلائل المبثوتة في آيات الله الكونية الدالة على جلاله وسلطانه.

والإنابة تقارن الخشية لله تعالى، وهذا هو القرآن يتحدّث عن ثواب المتّقين الذين خشوا ربّهم بالغيب، وكانت قلوبُهم قلوباً رجّاعة إلى الله موصولة الأسباب على الدوام بحماه، فيقول في سورة قَ: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أدنيت وقربت ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى الله ﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾(٦) مقبل على طاعة الله، وإذا عمرت الإنابة قلبَ صاحبها

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٠.
(٢) سورة الرعد، الآيات: ٢٧-٢٩.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٣.
(٥) سورة ق، الآيات: ٦-٨.
(٦) سورة ق، الآيات: ٣١-٣٣.

وكانت نتيجة لما تقدمها من تذكر، فإنها تقيم الإنسانَ على صراط العدل، وتغرس فيه نزعةَ الرجوع السّريع إلى الحقّ، ولقد أعطانا القرآن المجيد في هذا مثلاً كريماً يتعلّق بنبيّ الله داود عليه السلام، حيث قال الله تعالى في القرآن في سورة صٓ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾[1].

والله جلّ جلاله يُبشّر عبادَهُ المنيبين أحسنَ البُشْرى فيقولُ في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾[2] [3].

البحث الخامس:

أدبُ التّقوى في دين الله تعالى

أختي المؤمنة:

لقدْ تحدّث القرآن الكريم عن الوقاية التي تُحقّق الحصانةَ عن طريق التّقوى، فقال في سورة غافر: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[4]. وقال في سورة الطور: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا

(١) سورة ص، الآيات: ٢١-٢٥.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧-١٨.

(٣) أخلاق القرآن، ج١، ص٢٤٩-٢٥٣.

(٤) سورة غافر، الآية: ٤٥.

openkandil.com

ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾(١). وقال أيضاً على لسان المؤمنين: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾(٢). وقال في سورة الإنسان: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾(٣). وقد أكد الحديث الشريف معنى الوقاية التي تُحقّق الحصانةَ والصيانةَ عن طريق التّقوى، فجاء فيه: «فوَقَى أحدُكُم وَجْهَهُ مِنَ النّارِ» أي: حفظه وصانه من عذابها بالطاعة وعمل الخير، وجاء فيه: «مَنْ عصَا الله لم تَقِهِ مِنَ الله واقيةٌ» أي: لم يكن من أهل السلامة والأمان. وفي كلام الإمام علي رضي الله عنه: «كنّا إذا اشتدَّ البأسُ واحمرَّ الحدقُ اتقينَا برسول الله ﷺ». أي: جعلنَاهُ حصانةً لنا ووقايةً.

ويرى المرحوم الرافعي أنّ كلمة «التّقوى» لا تفسرها بالتحديد والتّعيين إلّا كلمة «الخُلُق الثّابت» وأن خير الأمم هي التي توطد دعائم مجتمعها بهذا الخُلُقِ الثّابت، فإنّ مرجع التّقوى في مظاهرها الاجتماعية إلى شيئين: الأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ، وهما المبدأ والغاية لكل قوانين الآداب والاجتماع، ثم مرجعها في حقيقة نفسها إلى شيء واحد، وهو الإيمان بالله، فالأمّة التي تكوّنُ لأفرادها فضيلةَ التّقوى تكوّن لها من هذه الفضيلة صفات اجتماعية مختلفة، يؤدي مجموعها إلى صفة تاريخية واحدة، وهي أنّها خير أمّة، على هذا جاء قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٤).

وعلى أساس هذا التصور العميق لرسالة الإسلام ذكر الرافعي في تعريف التّقوى أنّها فضيلة أرادَ بها القرآن الكريم إحكامَ ما بين الإنسان والناس، وإحكام ما بين الإنسان والخالق، ولذلك كان المراد من حديث القرآن عن التّقوى في أكثر الآيات أن يتقي الإنسان كل ما فيه ضرر لنفسه، أو مضارّة لغيره.

ولو رجعنا بعد هذا التّمهيد إلى القرآن المجيد لوجدناه يدعو إلى التقوى

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ١٧-١٨.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ١١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

ويحثُّ عليها ويأمرُ بها، ولقد ورد قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عشرات المرات في كتابه العزيز، وقال في سورة البقرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1]. وقال في سورة الأعراف: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2]. وقال عن المؤمنين في سورة الفتح: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[3]. وقال في سورة الأنفال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[4]. ويُحدِّثنا القرآن بأن دعوةَ الأنبياء كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وإلياس لأقوامهم كانت قولهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[5] وقد تكرر هذا التعبير القرآني ست مرات.

والقرآن الكريم يُعطينا ملامح عن صفات أهل التّقوى، فيذكر لنا أنّ سماتِهم التّذكّر الذي تتبعُهُ التّوبةُ والعودةُ إلى سَواءِ السّبيلِ، فيقول في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[6]. ويذكر أن من سماتهم الإحسان في الطاعة، والإتقان في العمل، فيقول في ختام سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[7]. ويذكر أيضاً أنّ من شأن التّقوى أن يكونَ صاحبها يقظاً فطناً، فيقول في سورة الأحزاب مخاطباً نساء النبي ﷺ: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[8].

ثم يذكر في سورة آل عمران مجموعةً من علامات التّقوى، فيُورد ستَّ علاماتٍ أو صفاتٍ، وهي: الإنفاق في حالتي الغِنَى والضّيق، وكظم الغيظ وهو أشد حالات الغضب، أي: إمساك ما في النّفْس بالصّبر، ولذلك يروى أن خادمة للسيدة عائشة غاظَتْها يوماً فقالت عائشة: «لله دَرُّ التَّقْوَى، ما تركتْ لذي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٠٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٧) سورة النحل، الآية: ١٢٨.
(٨) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

openkanz.com

غيظٍ شفاء». والعلامة الثالثة للمتّقين: العفو عن النّاس، وترك مؤاخذتهم على هفواتهم، والعلامة الرابعة: الإحسان، والخامسة: المسارعة إلى الاستغفار من الذنب، والسّادسة: عدم الإصرار على المعصية ولو صغرت.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[(١)].

وبتدبُّرِنا في آيات القرآن المجيد نفهم أن التقوى هي التي تحقق جمال الصداقة وبقاءها وحسن ثمرتها، فالله يقولُ في سورة الزخرف: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[(٢)]. أي: أن كل صداقةٍ أو صحبةٍ لغير الله تعالى فإنّها تنقلبُ يومَ القيامةِ عداوةً، وأمّا الصداقة المخلصة فإنّها باقية دائمة في الدنيا والآخرة، وقد يتضح هذا في عقولنا أكثر إذا تذكرنا أنّ التّقوَى تستلزمُ صيانةَ الإنسانِ حرماتِ سواه، فكيف بصيانة الإنسان لحرمات صديقه، وهذا أبو العباس الطوسي يقول: تعظيمُ حرماتِ المؤمنين من تعظيم حُرُمَاتِ الله تعالى، وبه يصِلُ العبدُ إلى مجملِ حقيقة التّقْوى.

والتّقْوى تستلزمُ الإيمانَ بالله، وفهم كتاب الله، ومعرفة هدي رسول الله، ودراسة سير الصالحين من عباد الله، والاهتداء بهذا كله لوجه الله. ولذلك يقول الإمام محمد عبده: التّقوى أن تقيَ نفسَكَ من الله أي: من غضبه وسخطه وعقوبته، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته، ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا مَنْ فَهِمَ كتابَ الله تعالى، وعرفَ سُنَّةَ نبيِّهِ ﷺ، وسيرة سلف الأمّة

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣-١٣٦.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

الصّالح، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله، فمن صبر وصابر ورابط، لأجل حماية الحق وأهله، ونشر دعوته، واتقى ربّه في سائر شؤونه، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز والسعادة عند الله تعالى.

وهناك صلة بين التقوى والبرّ الذي هو جماع الفضائل ومجموعة أعمال الخير، ولذلك يقول الله في القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(١). وكذلك أشار القرآن إلى الصلة الوثيقة بين التقوى والإيمان، حتى قال بعض المفسرين: إنّه لا اعتداد بالإيمان في الآخرة إلّا إذا صحبته التقوى، وكانت أثراً له في النفس والعمل الصالح، وهناك آيات كثيرة تشير إلى ارتباط الإيمان بالتقوى، فالله تعالى يقول في سورة البقرة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾(٢). ويقول في سورة المائدة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾(٣). ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٤). ويقول في سورة آل عمران: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٥). ويقول في سورة يونس: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾(٦). ويقول في سورة يوسف: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(٧). ويقول في سورة النمل: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(٨).

وإذا كان معنى قول الله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو اتقوا عذابَهُ وعقابَهُ، وإنّما تُضاف التّقوى إلى الله تعظيماً لأمرِ عذابِهِ وعقابِهِ، إذْ لا يمكن لأحدٍ أن يتقي ذاتَ الله، أو يتأبّى على مشيئتِهِ، فقد ينبغي لنا أن نتدبّر فيما جاء في «تفسير المنار» وهو: «إنّ العقاب الإلٰهي الذي يجبُ على النّاس اتقاؤُهُ قسمان: دنيوي وأخروي، وكل منهما يتقي باتقاء أسبابه، وهو نوعان: مخالفة دين الله وشرعه،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٦) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤.
(٧) سورة يوسف، الآية: ٥٧.
(٨) سورة النمل، الآية: ٥٣.

ومخالفة سننِهِ في نظامِ خلقهِ، فأمّا عقاب الآخرة فيُتَّقَى بالإيمان الصحيح والتّوحيد الخالص والعمل الصالح، واجتناب ما يُنافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل، وذلك مبيَّنٌ في كتاب الله وسُنّةِ رسوله ﷺ، وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السّلف الصّالح من الصّحابة والتّابعين والأئمة الأوّلين من آل الرسول وعلماء الأمصار»(١).

البحث السادس:

أدَبُ التّوكّل على الله تعالى

أختي المؤمنة:

التّوكُّلُ في الدّين هو أن يُفوّضَ الإنسانُ أمرَهُ إلى ربِّهِ، ويكتفي به فيه، ولذلك كان معنى التّوكل بلفظ التّفويض في القرآن في سورة غافر: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢). أي: أرُدُّ أمرِي كلَّهُ إلى الله. ولقد كان الرسول ﷺ يدعو فيقول: «**اللّهم إنّي أسلمتُ نفسِي إليك، وفوّضتُ أمرِي إليكَ**».

والتّوكل فضيلةٌ إسلامية مفروضة، إذْ بها يتحقق معنى الإيمان، حتى قيل: مَنْ لا تَوَكُّلَ له لا إيمانَ له، وكأنّهم استمدوا ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣)، وقد تكرر قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ست مرات في سور: آل عمران - مرتين - والمائدة والتوبة والمجادلة والتغابن.

---

(١) أخلاق القرآن، ج١، ص٢٠٣-٢٠٩.
(٢) سورة غافر، الآية: ٤٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[1] أي: يكل إليه أمره مؤمناً إيمان إذعان واطمئنان بأنه هو حسبه وكافيه، وناصره ومعينه، وأنه قادر لا يعجزه شيء، عزيز لا يغلبه ولا يمتنع عليه شيء أراده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2] أي: فهو تعالى بمقتضى عزته وحكمته، عند إيمانهم به، وتوكلهم عليه، يكفيهم ما أهمَّهُمْ، وينصرُهُم على أعدائهم، وإن كثر عدَدُهُم، وعَظُمَ استعدادُهُم، لأنّه عزيزٌ غالبٌ على أمرِهِ، حكيمٌ يضع كلّ أمرٍ في موضعِهِ، على ما جرى عليه النظام والتقدير في سُنَنِهِ، ومنه نصرَ الحقِّ على الباطل. بل كثيراً ما تدخل عنايته بالمتوكلين عليه في باب الآيات وخوارق العادات، كما حصل في غزوة بدرٍ، وآيات الله لا نهاية لها، وقدْ أجمعَ المُحقّقون على أنّ التّوكّل لا يقتضي تركَ الأسباب من العبد، ولا الخروجَ عن السُّنَنَ العامّة في أفعال الربِ.

كما أن التّوكّلَ الحقيقي الصادق يفتح أمام صاحبه طريقاً إلى الجنة بغير حساب، فقد جاء في الحديث المتّفق عليه أن سبعين ألفاً من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب: «**هُمُ الذينَ لا يَسْتَرْقُونَ** - من الرقية -، **ولا يتطيَّرُونَ، ولا يَكْتَوُون، وعلى ربِّهِمْ يَتَوَكَّلُون**».

ولا عجب فالتّوكل كل رجوع بصير كامل إلى رحاب الله عزّ وجلّ، وهذا يورث الرضا الإلهي، وهو الفوز الأكبر، ومن هنا يقول أبو عثمان الجيري: التفويض رد ما جهلت علمه إلى عالمه، والتفويض مقدمة الرضا، والرضا باب الله الأعظم، ومن توكل على الله ورضي به رباً وهادياً، رضي الله عنه، والتّنزيل المجيد يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾[3].

والتّوكل الحقيقي الصّادق يجعلُ كل ما يسوقه الله إلى عبده طيّباً وطاهراً وكريماً، ولذلك يقول ابن سالم البصري: التّوكل على الله فريضةٌ، لقوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٣) سورة البيّنة، الآيتان: ٧، ٨.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١)، والحركة في طلب الرزق مباح لمن عجز عن التوكل، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾(٢)، مما يفتح بالطلب والكسب منه طيب وخبيث، وما يفتح بالتّوكل لا يكون إلّا طيباً، لأنّ ذلك من معدنٍ طيّبٍ.

والله جل جلاله هو خيرُ من يُعْتَمَدُ عليه، ويُوكَلُ إليه، ويُستمد منه، ويُستعانُ به، وكذلك ورد قول الله في القرآن: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٣) ثلاثَ مرات في سورة النّساء، كما ورد في سورة آل عمران: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(٤)، وجاء في سورة الإسراء: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(٥).

والتّوكل الحقيقي الصّادق هو أسطعُ برهانٍ على تحقيق عقيدة التّوحيد في قلب المتوكّل وعقله، ولذلك كان التوكل - كما يصور رشيد رضا - أعلى مقامات التّوحيد، فالمؤمن الموحد الكامل لا يتوكل على مخلوق مربوب لخالقه مثله، بل مشهده في المخلوقات أنها أسباب سخر الله تعالى بعضها لبعض في نظام التقدير العام، الذي أقام الله به أمور العالم المختار منها وغير المختار، فكلها سواء في الخضوع لسننه في الأسباب والمسببات، وهي فيما وراء تسخيره إياها متساوية في عجزها عن النفع والضر، فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب، أن يطلب كل شيء عن طريق سببه، خضوعاً لسنن الله تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره الله أن يطلبها أمراً تكوينياً قدرياً، وتشريعاً تكليفياً، فإذا جهل الأسباب، أو عجز عنها، وكلّ أمره فيها إلى ربه تبارك وتعالى، داعياً إياه أن يعلمه ما جهل، بما سنه من وسائل العلم، ومنها الإلهام في بعض الأحيان، وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد أو حيوان أو إنسان.

ومن جلال المكانة لفضيلة التوكل أن نرى الحق جل جلاله يأمر بها خاتم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

رسله صلى الله عليهم وسلم، ويكرر هذا الأمر ويؤكده في مواضع كثيرة من كتابه المجيد، فيقول له في سورة النساء: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(١). ويقول في سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢). ويقول في سورة التوبة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣). ويقول في سورة الرعد: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(٤). ويقول في سورة الفرقان: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾(٥).

ويقول ابن القيم في حديثه عن التّوكل: فترك الأسباب المأمور بها قادح في التوكل، وقد تولى الحق إيصال العبد لها، وأما ترك الأسباب المباحة فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح وإلا فهو مذموم. ويقول أيضاً: فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة. ويقول عن بصراء الصوفية: وأجمع القول على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد. قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة - العمل - فقط طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبيّ ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته.

والعبد يتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله إلى مطلوبه، فإذا قام به توكل على الله في حال مباشرته، فإذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته، فكأن التوكل سيصاحب المؤمن في مراحل سعيه وعمله. ولقد كان رسول الله عليه الصّلاة والسّلام أصدق المتوكلين، ومع ذلك كان يحمل معه الزاد في

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.
(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

OpenKafahi.com

السفر، ولبس درعين حينما قاتل في غزوة أحد، وكان يدخر لأهله قوت سنة:
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(١) (٢).

البحث السابع:

أدبُ الدعوة إلى الله سبحانه

أختي المؤمنة:

الدَّعْوَة إلى الخير فضيلةٌ إسلاميةٌ قرآنيةٌ تجعلُ صاحبَها داعيةً من دعاةِ الصّلاح والإصْلاح، ومِعْواناً على تقويةِ جانبِ الخير والبِرّ، ومقاومة الشّرّ والإثم، وقد أمرَ القرآن الكريم بهذه الفضيلةِ حينَ قال الله في سورة آل عمران:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

أي: ولتكونوا أمة تدعو إلى الخير، أو ليتحقق فيكم ومنكم وبكم أمة تدعو إلى الخير، وهذه - كما يعبر القشيري - إشارة إلى أقوام قاموا بالله لله، لا تأخذهم لومة لائم، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة، وقفوا جملتهم على دلالات أمره، وقصروا أنفاسهم على طاعته، واستغرقوا أعمارهم على تحصيل رضاه، عملوا لله ونصحوا الدين لله، ودعوا خلق الله لله، فربحت تجارتهم، وما خسرت صفقتهم.

والدعوة إلى الخير هي دعوة إلى الله، ودعوة إلى سبيله، لأن الله جل جلاله لا يدعو إلا إلى الخير، ولا يأمر إلا بالبر، والقرآن يقول في سورة الحج:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٢) أخلاق القرآن، ج٢، ص: ٢١٤-٢٢٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

obeikandl.com

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(١)].

ويقول في سورة القصص: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[(٢)].

ويقول في سورة فصلت: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[(٣)].

ومن خلال هذه الصفة الكريمة نجد كتاب الله المجيد يُحدّثنا بأنها صفة من صفات الخالق الحميد، فقال في سورة الأنفال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[(٤)].

ويقول في سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾[(٥)].

وفي سورة يونس: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(٦)].

وفي سورة إبراهيم: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾[(٧)].

والدعوة إلى الخير من وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، ففي سورة يوسف نجد الحق جل علاه يقول لخاتم المرسلين محمد:

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[(٨)].

وفي سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾[(٩)].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٧.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.
(٦) سورة يونس، الآية: ٢٥.
(٧) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٨) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٩) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

opelikanbi.com

وفي سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾(١).

وفي سورة الأحزاب يقول له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾(٢).

وفي سورة الشورى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾(٣).

وهذا نوح عليه السلام يحدثنا بأنّه دعا قومه فأطال الدّعوة، وصبر عليها طويلاً برغم إعراضهم وفرارهم واستكبارهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾(٤).

والدعوة إلى الخير كانت صفة الأخيار من عباد الله، فهذا هو مؤمن آل فرعون يقول فيما يقول في سورة غافر:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾(٥).

ومجال الدعوة إلى الخير واسع فسيح، يشمل الدعوة إلى الإسلام، لأنه هدى الله لعباده، ويشمل الدعوة إلى الطهارة والإخلاص في القول والعمل، ويشمل الدعوة إلى مقاومة الأهواء والشهوات، ويشمل الدعوة إلى ما فيه مصلحة الفرد والجماعة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٤) سورة نوح، الآيات: ٥-٩.

(٥) سورة غافر، الآية: ٤١-٤٤.

obeikandi.com

وهذه الدعوة قد تأخذ شكلاً عاماً، كالدعوة التي تقوم بها الأُمّة المؤمنة لغيرها من الأمم، عن طريق هيئات الإرشاد وجماعات النّصح والتّوجيه، وقد تكون هذه الدعوة خاصّة يقومُ بها فردٌ لفردٍ، أو فرد لجماعةٍ، وقد تكون بين الغرباء، وقد تكون بين الإخوة أو الأصدقاء، وها هو ذا الغزالي يقرر أنّ حقوق الأخوة عليك أن تدعو أخاك إلى الخير، ويرسم الطريق إلى ذلك، ويحذر من بعض معاطبه، ليسلم السائر فيه، ويقول فيما يقول:

فليستْ حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك، وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته، ولم يعمل بمقتضى العلم، فعليك النصيحة، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل، وفوائد تركه، وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة، لينزجر عنه، وتنبهه على عيوبه، وتقبح القبيح في عينه، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر، لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، إذ قال ﷺ: «**المؤمن مرآةُ المؤمن**»[1]. أي: يرى منه ما لا يرى من نفسه، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه، ولو انفرد لم يستفد، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة.

وقال الشّافعي ﷺ: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظ علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أتحبُّ من يُخبرك بعيُوبكَ؟ فقال: إنْ نصحني فيما بيني وبينَهُ فنَعَمْ، وإن قرّعَني بين المَلأ فلاَ.

والإسلامُ العظيمُ - دائماً - يحثّ أقوى الحثّ على أن تكون الدعوة إلى الخير شعارَ المؤمنين المهتدين، ويحرض على بث ما لدى الإنسان من علم أو فقه، ليكون ذلك حقاً ميسوراً يبلغ أهليه ومستحقيه، وفي الأثر: «**لا تمنعُوا العلم أهله، فإن في ذلك فسادَ دينِكُم، والتباسَ بصائِركم**». قال تعالى في سورة البقرة:

(١) حديث صحيح، صحيح الجامع برقم ٦٦٥٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾(١).

ولقد رسم التنزيل الحكيم الطريقة المثلى للدّعوة إلى الخير، فقال في سورة النحل:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾(٢).

ويعلق الإمام الرازي في تفسيره على هذه الآية الكريمة فيقول: أهل العلم ثلاث طوائف: الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية، وهي الحكمة.

والقسم الثاني الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة، لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام.

وهذان القسمان هما الطرفان، فالأول هو طرف الكمال، والثاني طرف النقصان.

وأما القسم الثالث فهو الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حدّ الحكماء المحققين، ولا في النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الحلمية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة، وأدناها المجادلة.

والدعوة إلى الخير تستلزم أن يكون الداعي إليه عارفاً للخير عليماً به، مميزاً بينه وبين الشر، حتى يكون على بينة من أمره، وأن يكون عليماً بأحوال من

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٩-١٦٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

يدعوهم إلى الخير، وأن يكون بصيراً بالنفوس والطباع والمجتمعات، وأن يكون متمسكاً بما يدعو إليه من خير، وفي القرآن المجيد يقول الله في سورة البقرة: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١).

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾(٢).

ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه: «مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بِي بقوم **تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بمقاريضَ من نارٍ، فقلتُ: مَنْ هؤلاء؟ قالُوا: هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون بالبِرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون**»(٣).

والحكيم يقول:

لا تلم المَرْءَ على فعلِهِ ... وأنتَ منسُوبٌ إلى مثلِهِ
مَنْ ذَمَّ شيئاً وأتى مثلَهُ ... فإنَّما يَزْري على عقلِهِ

ولقد كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا دعا إلى شيء بدأ بنفسه.

وإذا كانت الدعوة إلى الخير تتحقق في بعض مجالاتها بالقول استجابة لهدى الله القائل في سورة النساء: ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٥).

وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢-٣.
(٣) مسند أحمد، ج ٣/ ١٨١، وهو حديث حسن.
(٤) سورة النساء، الآية: ٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١١٤.
(٦) صحيح مسلم برقم ٤٧.

فإن الدعوة إلى الخير تتحقق بصورة أقوى وأعلى عن طريق القدوة والسلوك والتطبيق، وكم من داع إلى الخير بهديه وسمته، وأحواله وأعماله.

وثواب الله تعالى على فضيلة الدعوة إلى الخير ثواب جليل عظيم تشير إليه الأحاديث النبوية التالية:

١ - «مَنْ دَلَّ على خيرٍ فلَهُ مِثْلُ أجْرِ فاعِلِهِ»(١).

٢ - «لأنْ يهدِيَ الله بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنَ الدّنيا وما فيها»(٢).

٣ - «طُوبى لعبدٍ جعلَهُ الله مِفْتَاحاً للخيرِ، مِغْلاقاً للشّرّ، وويلٌ لعبدٍ جعلَهُ الله مِفْتاحاً للشّرّ مغلاقاً للخير»(٣).

٤ - «مَنْ دعَا إلى هُدًى كان لهُ مِنَ الأجرِ مِثْلَ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقصُ ذلك من أجورِهم شيئاً»(٤) (٥).

البحث الثامن:

أدَبُ الأسوة والقدوة

أختي المؤمنة:

الأُسْوةُ: مِثْلُ القُدْوَةِ وهو ما يُؤتس به، أي يُقْتَدى به. والاقتداءُ هو السّير على سُنن من يُتَّخذُ قدوة، أي: مثالاً يُتّبع، وائتسَّ فلان بفلان - كاقْتَدَى - حذا حذوه، أو نهج نهجه، في قول أو عمل أو عقيدة.

(١) صحيح الجامع برقم ٦٢٣٩.
(٢) صحيح البخاري برقم ٢٩٤٢ و٣٠٠٩ و٣٧٠١.
(٣) الأحاديث الصحيحة، ج ٣/ ٣٢١.
(٤) صحيح الجامع برقم ٦٢٣٤.
(٥) أخلاق القرآن، ج٣، ص١٩١-٢٠٤.

وتطلب الأسوة هو الحرص على أن يكون أمام الإنسان مثل يحتذيه، أو قدوة يتشبه بها، مع استشعار الإنسان روح التأسي الحميد في أعماله وأحواله، وهذه الصفة الطيبة خُلُق من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم.

ولا شك أن القرآن العظيم هو أكملُ أسوةً وأفضلُ قدوةً، ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(١).

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «إنّ أحْسَنَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسَنَ الهَدْي هديُ محمّدٍ ﷺ»(٢). ومعنى هذا أنّ المسلم يجب عليه أولاً أن يطلب الهدى من الله، في كتاب الله، فإن وجد الحكم أو الرأي لم يتجه إلى سواه، وإن لم يجد طلبته اتجه إلى سنة رسول الله، ولذلك يقول بعض السلف: كانت الأئمة بعد النّبيّ ﷺ، يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة، لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنّبيّ ﷺ.

والقرآن المجيد يقول في سورة الأحزاب عن المثل الأعلى في القدوة والأسوة أمام المسلم، وهو الرسول صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣).

إنه - كما يذكر القشيري - إمامكم، وقدوتكم، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم، ويعلق الإمام ابن كثير على الآية الكريمة، مبيناً أنها أصل كبير في التأسي برسول الله عليه الصّلاة والسّلام، فيقول: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنّبيّ ﷺ، يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، وانتظار الفرج من ربّه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) حديث صحيح.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا، وتزلزلوا واضطربوا من أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: هلا اقتديتم به، وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وإنما كان الرسول أسوة حسنة لأنه الكامل في صفاته وأخلاقه، وحسبه شهادة الله تعالى فيه، وهي فوق كل شهادة، وهي قول الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

والرسول هو القائل: «**إنّما بعثتُ لأتمّمَ مكارم الأخلاق**»[2].

والله عزّ شأنه هو الذي يأمر بالاقتداء بالرسول، والائتساء بهديه، والاتباع لسنته، واتخاذه أسوةً ومَثَلاً، ويؤكد ذلك في القرآن أكثر من مرة فيقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3].

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[4].

ويقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[5].

ويؤكد الرسول ذلك فيقول: «**كلُّ أُمّتي يَدْخُلون الجنّةَ إلّا مَنْ أبَى**» قالوا: يا رسولَ الله، ومَنْ يأبَى؟ قال: «**مَنْ أطاعَني دَخلَ الجنَّةَ، ومَنْ عصَاني فقدْ أبَى**»[6].

والإنسان العاقل لا يقبل لنفسه ولا يرتضي لذاته أن يسير في الحياة كيفما اتفق، يخطئ مرة، ويصيب مرة، دون رائد أو مرشد، بل إن العقل الحكيم يدعو

(١) سورة القلم، الآية: ٤.
(٢) الأحاديث الصحيحة برقم ٤٥، وصحيح الجامع برقم ٢٣٤٩.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٥) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٦) صحيح البخاري برقم ٧٢٨٠.

صاحبه إلى أن يتخذ لنفسه قدوة ومثلاً، فينتفع بتجارب من تقدمه أو سبقه، ولا يتأبى على التقليد في الخير، والمتابعة في الرشد، ولذلك قال الحكيم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إنّ التشبّه بالرّجالِ فلاحُ

وكلّما كانَ الرائدُ أعلمَ وأقومَ وأحكمَ فازَ المتطلّبُ للأسوةِ الرّشيدةِ بخيرٍ أعظم وثمرةٍ أكبر، ورسول الله عليه الصّلاة والسّلام هو أفضل أسوة وأكمل قدوة.

ولقد عقد الطوسي في كتابه «اللّمع» فصلاً جعل عنوانه: الأسوةُ والاقتداءُ برسول الله ﷺ، وفيه يقول: أمرَ الله عزّ وجلّ الخَلْقَ كافةً بطاعةِ رسول الله ﷺ، كما أمرهم بطاعته، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٢).

وأمرهم بالقبول منه، بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾(٣).

وأمرهم بالانتهاء عما نهى عنه بقوله جلّ وعلاً: ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٤).

ودلّهم على الاهتداء باتباعه بقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٥).

ووعدهم الهداية بطاعته بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾(٦).

وحذَّرَهُمُ الفتنةَ والعذابَ الأليم إنْ خالَفُوا أمرَهُ، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٧).

ثم عرفنا الله تعالى أنّ محبّة الله للمؤمنين، ومحبّة المحبّين لله في اتباع رسوله، بقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٨).

ثم ندب الله المؤمنين إلى الأسوة الحسنة برسوله عليه الصّلاة والسّلام، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٩).

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٦) سورة النور، الآية: ٥٤.
(٧) سورة النور، الآية: ٦٣.
(٨) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٩) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

ثم يعود للطوسي فيقول:

فأما الخاصة من هؤلاء الخاصة: لما أحكموا الأصول، وحفظوا الحدود، وتمسكوا بهذه السنن، ولم يبق عليهم من ذلك بقية؛ استبحثوا أخبار رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، التي وردت في أنواع الطاعات، والآداب والعبادات، والأخلاق الشّريفة، والأحوال الرصينة، وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، والأسوة به، واقتفاء أثره فيما بلغهم من آدابه وأخلاقه، وأفعاله وأحواله، فعظموا ما عظم، وصغروا ما صغر، وقللوا ما قلل، وكثروا ما كثر، وكرهوا ما كره، وفي استسلام إبراهيم وإنابته، يعود فيقرر الأسوة ويكررها، مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١).

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، هؤلاء الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدى، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة، وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج، من يريد أن يحيد عن طريق القافلة، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق، فما بالله من حاجة إليه سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وقد كرر القرآن ذكر الأسوة في إبراهيم للتأكيد، والمراد بالذين معه قد يكون الأنبياء، أو أصحابه المؤمنين، أو أتباعه الذين آمنوا، وكلهم خيار، فيهم قدوة طيبة في التبرؤ من الكفر والإشراك.

وفي سورة الأنعام يذكر الحق تبارك وتعالى طائفة من الأنبياء والمرسلين، ثم يقول عنهم:

﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٦.

لَيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

والمعنى - كما في تفسير المنار - أنّ أولئك الأنبياء هُمُ الّذينَ هَدَاهُمُ الله الهداية الكاملة، فبهداهم - دون غيرهم - اقتدِ أيُّها الرسول، فيما يتناوله كسبك وعملك، ممّا بعثتُكَ به؛ من تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، والصّبر على التّكذيب والجحود، وعلى إيذاء أهل العناد والجحود، ومقلدة الآباء والجدود، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق، وأحاسن الأعمال، كالصّبر والشّكر، والشّجاعة والحلم، والإيثار والزهد، والسخاء والبذل، والحكم بالعدل.

وإنما أمره الله أن يقتدي بهداهم الذي هداهم إليه في سيرتهم، سواء ما كان منه مشتركاً بينهم، وما امتاز به في الكمال بعضهم، كما امتاز نوح وإبراهيم وآل داود بالشكر، ويوسف وأيوب وإسماعيل بالصّبر، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس بالقناعة والزهد، وموسى وهارون بالشجاعة وشدة العزيمة في النهوض بالحق، فالله تعالى قد هدى كل نبي، ورفعه درجات في الكمال، وجعل درجات بعضهم فوق بعض، ثم أوحى إلى خاتم رسله خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم، وهم المذكورون في القرآن الكريم، وأمره أن يقتدي بهم في هداهم، وهذه هي الحكمة العليا لذكر قصصهم في كتاب الله تعالى، وقد قرر الحق جل جلاله أن القرآن المجيد قد جاء بالحق وصدق المرسلين، وأن الرسول ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل، فعلمنا من هذا أنه عليه الصّلاة والسّلام كان مهتدياً بهداهم كلهم، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم، لأنه اهتدى بها كلها، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقاً فيهم، إلى ما هو خاص به دونهم، ولذلك شهد الله تعالى له بما لم يشهد به لأحد منهم، فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وأمّا فضائله وخصائصه الوهبية، فأمر تفضيله عليهم فيها أوضح وأظهر،

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٩-٩٠.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

وأعظمها عموم بعثته وختم النبوات والرسالات به، وكمال الأشياء في خواتيمها، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويرى الرازي المفسر أن موضع الاقتداء والتأسي في الآية السابقة فيه أكثر من قول:

أ - يُقْتَدى بهم في القول بالتّوحيد والتّنزيه لله عن كل ما يليق بجماله وجلاله وكماله.

ب - يُقْتَدى بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة.

ج - يُقْتَدى بهم في شرائعهم، إلّا ما نسخه الله منها.

ويجوز أن يكون الأمر كلَّ هذه الأمور[1].

البحث التاسع:

أدبُ الأمر بالمعروف

أختي المؤمنة:

لقد عُنِيَ القرآنُ الكريمُ بالحديثِ عن «المعروف» مؤكداً التّوجيهَ إليهِ والحثَّ عليهِ، مُذكّراً بجمال هذا المعروف في كثير من الميادين، وهذه مثلاً سورة البقرة أكاد أسميها «سورة المعروف»؛ لأنّ مادته جاء ذكرُها في هذه السورة خمس عشرة مرة، فالله تعالى يقولُ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[2].

قال المفسرون: إن القول المعروف هو الكلام الجميل الذي تقبله النّفوس والقلوبُ ولا تنكره، يرد الإنسان به السائل من غير عطاء، مع ستر لما وقع منه

(١) أخلاق القرآن، ج٥، ص: ١١-٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

من الإلحاف في السؤال، ممّا يثقل على النفوس، أو ستر حال الفقير بعدم التشهير به، فذلك خير من صدقة يتبعها أذى.

والقرآن يُطالب الأمّةَ المؤمنةَ بأن تكون أمّةَ الخيرِ والأمرِ بالمعروف، فيقول الله في سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

أي: لتكونوا كلكم أمة تتصف بهذه الفضائل، ولذلك رجح الإمام محمد عبده أن الأمر هنا عام يشمل الأمة كلّها، ولا يقتصر على طائفة منها أو مجموعة، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين، ويدل على العموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[2].

وعلى هذا يكون التقدير: فلتوجد منكم وبكم وفيكم أمة داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، وهذا يشمل كل قادر على أقل تقدير.

وكتاب الله العزيز قد جعل فضيلة الأمر بالمعروف إحدى صفات الأمة التي نعتها ربها بأنها خير أمة، فقال في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3].

وجعل هذه الفضيلة صفة الأمة المؤمنة المتكافلة المتعاونة على الخير، فقال في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

وجعل هذه الفضيلة إحدى صفات الذين آمنوا وباعوا الله أنفسهم وأموالهم، واشتروا منه الجنة لقاء ذلك، واستحقوا التبشير من ربهم بأنهم أصحاب الفوز العظيم، فقال عنهم في سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة العصر.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وجعل هذه الفضيلة صفة الصّالحين المسارعين في الخيرات الذين لا يضيع لهم أجرٌ ولا ذكر فقال الله في سورة آل عمران: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾(٢).

وجعل القرآن الكريم فضيلة الأمر بالمعروف من صفات المنصورين المعتزين بعزة الله سبحانه، فقال في سورة الحج: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾(٣).

والآمر بالمعروف، الناطق بالخير، الموجه إلى البر، يكون من أهل الثواب الجزيل والأجر العظيم، ولذلك يقول القرآن في سورة النساء: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٤).

وفضيلة الأمر بالمعروف إحدى فضائل الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وها هو ذا القرآن يقول في سورة الأعراف عن المؤمنين:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٤، ١١٥.
(٣) سورة الحج، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٤.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

بل أخبرنا القرآن العظيم أن الله عز وجل قد قيّد طاعة الرسول عليه الصّلاة والسّلام بالمعروف، وذلك في عقد مبايعته للنساء، فيقول في سورة الممتحنة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وقد ذكر القرآن الكريم أن الخروج على الأمر بالمعروف من صفة أهل النفاق، فقال في سورة التوبة:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢).

وهذا هو الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، يقول: أول ما تغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف، ولم ينكر المنكر، نكس فجعل أعلاه أسفله.

وقال أبو الدرداء: لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يجلّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليكم خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم.

هذا وقد شرطوا للآمر بالمعروف شروطاً، منها أن يكون مُكلّفاً عاقلاً، مؤمناً عادلاً، ورعاً حَسَنَ الخُلُقِ، وأن يكونَ عالماً، ليعلَم حدودَ المعروفِ فيكون بصيراً بمواضعِهِ، وأن يكونَ أمرهُ بالمعروف ليّناً هيّناً، ولذلك جاء في الأثر: «مَنْ أمرَ بمعروفٍ فليكن أمرُهُ بمعروف»(٣).

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٣) أخلاق القرآن، ج٣، ص: ٢٠٧-٢١٨.

البحث العاشر:

أدبُ الكلام والتحدّث

أختي المؤمنة:

طيب القول - أو طيب الحديث - فضيلةٌ قرآنيةٌ جليلة الشّأن! لأن المَرْءَ بأصغريه: قلبِهِ ولسانِهِ، فإذا رزقه الله تعالى قلباً طاهر الإحساس، ولساناً طيّب القول، فقد أوسع الله لعبده في الفضل والتّوفيق. ولذلك يقول بعض الأئمة: طيب الكلام من جليل عمل البر. وأن الكلمة الطيبة تعمل في الإنسان عمل السحر، فتهدّئُ رَوْعَهُ، وتُريح نَفْسَهُ، وتدخل بالطمأنينة والانشراح على صدره، والتّوفيق للنّطق بالكلمة الطّيّبة هبة ربانيةٌ عظيمةَ الشأن، ولذلك يقول الناس: الكلمات هبات. ولا ريب في أن الكلام هو الترجمان والدليل والبرهان على عقل الإنسان ولذلك قيل:

إنّ الكلام لفي الفُؤَادِ، وإنّما جُعِلَ اللّسانُ على الفُؤَادِ دليلا

ولقد حثّ القرآن المجيد على طيّب الكلام في كثيرٍ من آياته، فقال في سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

ويقول في سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٢).

ويقول في سورة فصلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

ودعا القرآن الحكيم عبادَ الله إلى أن يحرصوا على القول الحسن والكلام

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

الطَّيِّب. فقال في سورة الإسراء: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(١). معنى ينزغ بينهم أي: يفسد ويهيج الشر بينهم.

أي: قل لعبادي المؤمنين ينطقوا بالكلمة الحُسْنَى، وهي كلمة التّوحيد والإقرار بالنّبوة، وإذا جادلهم الكافر في أمر التوحيد والعقيدة، فليقُولُوا له: هَدَاكَ الله، يرحمُكَ الله.

وعليهم - من باب أولى - أن يحفظوا حُسْنَ الأدبِ وطيِّبَ القولِ فيما بينهم، وليتذكّروا أنّ فُحشَ الكلام يكون من وسوسةِ الشّيطان اللعين، لأنّه للإنسان عدوٌّ مُبين.

ولقد جعل القرآن الكريمُ طيِّبَ القولِ أو حُسْنَ الكلام جزءاً من الميثاق أو العهد الذي أخذه على بني إسرائيل، فقال عزّ مِنْ قائلٍ في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢).

ويتمثّل القولُ الأحسن في دعوة إلى خير، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصدق في خير، وتلطف في حوار.

ويقول الحق جل جلاله في سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾(٣).

والطّيّب من القول - كما ذكر هنا أهل التفسير - قد يكون قرآناً مرتلاً، أو تسبيحاً مذكّراً، أو تذكيراً هادياً، ولننظر كيف عبر الذكر الحكيم هنا بكلمة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الحج، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

﴿وَهُدُوا﴾ كأنّ النّطق بالكلمة الطّيّبة لونٌ جليل من ألوان الهداية والتّوفيق، وكأن تحقيق التّمسّك بطيب الكلام إنّما هو من صفات أهل الاهتداء والاستقامة على الطريق.

ويقول الله عزّ شأنُهُ في سورة فاطر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[1].

فانظر كيف صور النّص الكريم الكلام الحسن الطيب، كأنّه قوة قادرة على الصعود والتسامي إلى مواطن القبول الإلٰهي والرضا القدسي، أو صالحة لكي تبلغ هذا المبلغ الرفيع الكريم.

وفي سورة إبراهيم يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[2].

والكلمة الطيبة كما يُعبر بعضُ المفسرين تُشبه الشّجرةَ الطّيّبة، فهي ثابتة سامقة مثمرة، لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تَقْوى عليها معاول الطّغيان، وهي سامقة متعالية على الشّرّ والظّلم والطّغيان، مثمرة لا ينقطع ثمرُها، لأنّ بذورها تنبت في النّفوس المتكاثرة آناً بعدَ آنٍ.

وإنّ الكلمة الخبيثة كالشّجرة الخبيثة، قد تهيج وتتعالى وتتشابكُ، ويُخيل إلى بعض النّاس أنهم أضخم من الشجرة الطّيّبة وأقوى، ولكنّها تظلّ نافشةً هشّة، وتظلّ جذورها في التّربة قريبة، حتى لكأنّها على وجهِ الأرض، وما هي إلا فترة ثم تجتث وتُستأصل من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء.

وفي ظل الشّجرة الثابتة التي ضُربت مثلاً للكلمة الطّيّبة ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤-٢٧.

ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[١]. وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] بتجاوزهم حدُودَ الطريق، وبعدهم عن النّور الهادي ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[٣].

وإذا كان القرآن الكريم قد حضَّ على التّمسّك بفضيلة طيب الكلام لأنّه عنوان النّفس الطاهرة، فإنّه مع هذا قد حذّرَ ممّا ينحرف باللسان إلى ما لا يليق من الكلام، ولذلك قال الله في القرآن الكريم ضمن صفات المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٤].

واللغو من الكلام هو ما لا يُعتَدُّ به ولا فائدة فيه ولا يليق بالمسلم أن يردّده، ويطلق اللّغو على الكلام القبيح والقول الخبيث.

وكذلك يقول الله في القرآن في سورة النساء: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[٥].

وهو بذلك ينفّر من النّطق بالكلام السّيئ الذي يتضمّن سباً أو شتماً أو طعناً، اللّهم في موطن القضاء أو الدّفاع عن النّاس أو مقاومة الظالم، إذ ليس معنى طيّب القول أن يضعف المسلم، أو يتخاذل أمام اعتداء عليه، أو اغتصاب لحقه، والكلمة الطّيّبة قد تكون قويّةً صارمةً رادعةً في الموطن المناسب لذلك، ومن هنا قال سيدنا رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «**أفضَلُ الجِهَادِ كلمةُ حقٍّ عندَ سُلْطَانٍ جائرٍ**»[٦].

وطيب القول يستلزم الصّدق فيه، والابتعاد عن الكذب، لأنّ الكلمة لا تكون طيبة إلّا إذا كانتْ صادقةً، ومن هنا قال الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «**وإيّاكم والكذبَ، فإنّ الكذبَ يهدِي إلى الفُجورِ**»[٧]. ولا يتفق الفُجورُ مع الفضيلة بحالٍ من الأحوال.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٣.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٨.
(٦) صحيح الجامع الصغير برقم ١١٠٠.
(٧) حديث صحيح.

والقرآنُ يُشير إلى الثّواب العظيم الذي يترتب على الكلمة الناطقة بالحق، المتحلية بالرّشد والصدق، فيقول في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[١].

وقد أمر الله في كتابه المسلمين بأن يحرصوا كل الحرص على أدب الحديث وطيب القول وحسن الكلام عند مخاطبة رسول الله ﷺ، فقال القرآن في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾[٢].

ومراعاة هذه الفضيلة في حق رسول الله عليه الصّلاة والسّلام ما زالت قائمة، فلا ينبغي أن يرفع المسلم صوته في مسجد الرسول، ولا عند قبره الشّريف، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنّه سمع صوت رجلين في مسجد النّبيّ ﷺ وقد ارتفع صوتهما، فجاءهما مغضباً وقال لهما: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال لهما: من أينَ أنتما؟ قالا: من أهل الطّائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتُكما ضَرْباً.

ولذلك قرّر العلماء أنّه يكره رفع الصّوت عند قبر النّبيّ ﷺ، والقرآن الكريمُ يدعُو إلى الاستمساك بفضيلة طيب القول مع الوالدين، لعظيم شأنهما ورفيع مكانتهما، ولذلك يقول في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[٣].

فحذّرَ القرآنُ أن يُسيء الولد الخطابَ مع أبويه، ولو بما يكون فيه أقل تبرّم

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.
(٢) سورة الحجرات، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

بهما، وهو لفظ «أف» ونهاه عن أن يزجرهما أو يغلظ عليهما بقول أو عمل أو إشارةٍ، وطالبه بأن يقول لهما قولاً طيّباً لطيفاً، وأن يدعو لهما، مثل قوله: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

ويدعو كتاب الله تعالى إلى التّمسك بفضيلة طيّب القول مع اليتامى. فيخاطب النّاس في شأن هؤلاء الضعفاء قائلاً في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾(١)، أي: قولاً طيّباً عادلاً موافقاً للدّين، يقاوم المفسدةَ، ويحفظُ المصلحة.

ويقول الله في القرآن أيضاً للناس في شأن اليتامى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٢). أي: كلاماً طيّباً له فائدته، ولهم فيه مصلحة، ويقول الإمام محمد عبده: المعروفُ هو ما تعرفُهُ النّفوس الكريمة، وتألفُهُ، ويقابله المنكرُ، وهو ما تُنكِرُهُ وتمجُّهُ.

فالمعروف هنا يشمل تطييب النّفوس بإفهام السّفيه أن المال ماله، لا فضل لأحد في الإنفاق منه عليه، ليسهل عليه الحجز، ويشمل النصح والإرشاد وتعليم ما ينبغي أن يعلمه السّفيه وما بعده للرشد، فإن السّفه كثيراً ما يكون عارضاً للشخص لا فطرياً، فإذا عُولج بالنّصح والتأديب حسنتْ حالهُ، فهذا هو القول المعروف الذي أمرَ الله أولياء السّفهاء به، وزيادة على حفظ أموالهم وتثميرها، والإنفاق عليهم منها.

ويدعو القرآن إلى طيب القول مع السّائلين، فيقول الله في سورة البقرة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾(٣).

أي: أن الكلام الجميل الذي تقبله النّفوس، ولا تنكره القلوب الذي ترد به السّائل من غير عطاء، مع ستر حاله وغفران إلحاحه، خير من أن تعطيه شيئاً، ثم تتبعه بالأذى في القول أو العمل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

ويقول الله في القرآن في سورة الإسراء: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾(١).

والخطاب هنا من الله لرسوله، أي: إذا أعرضت يا محمد عن إعطاء سائليك لضيق يدك، وعدم وجود شيء عندك، فقل لهم قولاً طيباً ليناً لطيفاً، أي: أحسن القول، وابسط لهم العذر، وادعُ لهم بسعةِ الرّزقِ، وقُلْ لهُمْ مثلاً: إذا جاءني من فضل الله شيء أعطيتُكم، أو قلْ لهم: يرزقنا الله وإياكم من فضله.

ويدعو القرآن إلى طيب القول حتى مع المخالف في الدِّين والاعتقاد، فيقول في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(٢).

بل وأكثر من هذا، إن القرآن يدعو إلى طيب القول مع طاغي الطغاة، مع فرعون، فالله تعالى يقول لموسى وهارون في سورة طه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾(٣).

ثم تأتي السُّنَّةُ النّبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام: لقد كان الرسولُ مثلاً أعلى في طيِّبِ القولِ ولينِ الكلامِ وسهولةِ المعاملة، حتّى وصَفَهُ الله تعالى بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٤).

وحثّ الرسولُ كثيراً على فضيلة طيّب القول فقال ﷺ: «مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خيراً أو ليصمتْ»(٥).

وجاءت هذه الطّائفة الكريمة من الأحاديث:

«كفَّ لسانَكَ إلّا من خيرٍ»(٦).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٣) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٥) حديث صحيح.
(٦) حديث صحيح.

«أَفْشِ السّلام، وأطبِ الكلامَ»(١).

«لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُهُ، ولا يستقيمُ قلبُهُ، حتّى يستقيمَ لسانُهُ»(٢).

«اتقوا النّار ولو بشِقِّ تمرةٍ، فإنْ لم يكنْ فبكلمةٍ طيّبةٍ»(٣).

«الكلمةُ الطّيّبةُ صدقةٌ»(٤).

«أهلُ النارِ كلُّ جعظري جوّاظٍ مستكبرٍ، وأهل الجنة الضعفاء المغلُوبُون»(٥).

«المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلِمُونَ مِنْ لسَانِهِ ويدِهِ»(٦).

وكما حثّ الرسول على طيب القول بهذه الصورة الرائعة حذر من الكذب والاختلاق، وقال فيما قال: «بئس مطية الرجل زعموا» لأن الزعم ليس قائماً على الصدق أو اليقين.

أما بعد، فليت كل مسلم يعود لسانه طيب المقال وحُسْن الكلام، وأن يتذكر على الدوام قول خالقه جل جلاله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٧).

---

(١) حديث صحيح.
(٢) مسند أحمد، ج ٣/ ١٩٨، ومجمع الزوائد، ج ١/ ٥٣، وسنده حسن.
(٣) حديث صحيح.
(٤) حديث صحيح.
(٥) صحيح الجامع ٢٥٥٩.
(٦) حديث صحيح.
(٧) سورة قَ، الآية: ١٨.

obeikandl.com

البحث الحادي عشر:

أدَبُ التّدبّر والتفكّر

أختي المؤمنة:

التّدبر هو النّظر في أدبار الأمور، أي: أواخرها ونتائجها وعواقبها؛ وتدبّر الكلام هو النّظر والتّفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له، وقد استعملت كلمة «التدبر» في كل تأمل، سواء أكان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أم في سوابقه وأسبابه، أم في لواحقه وأعقابه. وتدبر فلان الأمر ودبره تدبيراً: نظر في عواقبه وأدباره ليقع على الوجه المحمود، ولذلك يقال: التّدبير هو النّظر في عواقب الأمور، أو التفكير في دبر الأمور.

وقد وردت مادة «التّدبير» في طائفة من آيات القرآن الكريم، فجاء في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يقضي ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والكمال. وجاء في «تفسير المنار» عن هذه الآية قوله: التّدبير في أصل اللغة: التوفيق بين أوائل الأمور ومباديها، وأدبارها وعواقبها، بحيث تكون المبادي مؤدية إلى ما يريد من غاياتها، كما أن تدبر الأمر أو القول هو التفكر في دبره، وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي إليه.

وجاء في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2]. وجاء في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[3]. وجاء في سورة

(١) سورة يونس، الآية: ٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٥.

obeikandl.com

النازعات: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾(١) والمراد بالمدبرات أمراً هنا الملائكة الموكلة بتدبير الأمور، أو الملائكة المدبّرات أمر الدنيا بإذن الله تعالى، ويرى الإمام محمد عبده أنها الكواكب التي انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية في عالمنا الأرضي، وليس التدبير هنا إلا ظهور الأثر، ونسبة التدبير إليها لأنها أسباب ما نستفيده منها، والمدبر الحكيم هو الله جل شأنه.

وقد وردت مادة التّدبّر في آيات القرآن المجيد، ففي سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾(٢). أي: ألا يتأملون معانيه ويتبصرون ما فيه؟ أفلا يتدبرون كتاب الله تعالى، فيعلموا أنّه كلام الله، لا تساق معانيه، وائتِلاف أحكامِه، وتأييد بعضه بعضاً بالتّصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتّحقيق؛ لأنّ القرآن لا يكذِّبُ بعضَه بعضاً ولا ينقض بعضُه بعضاً، وما يجهله بعض الناس من أمره هو من قلة علمهم وتقصير عقولهم.

وجاء في سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾(٣) أي: أفلا يلاحظون معاني القرآن ودقائقه ورقائقه، وما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات، أم أن قلوبهم قد قست أو استغفلت، فهي لا يصل إليها الذكر، ولا ينكشف لها الأمر، فكأنها مقفلة، لا تقبل التدبر ولا الاعتبار؟ ويصور ابن جرير الطبري معنى الآية بما خلاصته: أفلا يتدبر هؤلاء الضالون مواعظ الله تعالى التي يعظم بها في آيات القرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ، ويتفكرون في حججه التي بيّنها لهم في تنزيله، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون، أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر، إنهم لو فعلوا لوجدوا في القرآن الكريم زاجراً عن معصية الله، وداعياً إلى طاعته.

وهذا معناه أن التدبر إذا صار للإنسان خلقاً يتحلّى به، وفضيلة يتزيّن بجمالها، فإن هذا التّدبّر يعصم صاحبه من السّوء، ويقرنه بالخير؛ وهذا التدبر

(١) سورة النازعات، الآية: ٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

obeikandl.com

إنما يُثيره في الإنسان قلبٌ حيٌّ يقظٌ، وعقلٌ متفتّحٌ مستجيبٌ، وإحساس دقيق مرهف، وبهذا الاستعداد يتمكن الإنسان أن يحسن التّدبر الدنيوي والتّدبّر الديني، وهما اللّذان يُشير إليهما خالد بن معدان في قوله: ما مِنْ آدمي إلّا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينِهِ، وما وعدَ الله من الغيب، فإذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً أبصرتْ عيناه اللّتان في قلبِهِ، وإذا أرادَ الله به غيرَ ذلك طمسَ عليهما.

وجاء في سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]. وكلمة يدبّروا في الآية أصلها يتدبروا أي: أفلم يتأمل هؤلاء المشركون كلام الله تعالى وتنزيله، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حُجَجَ الله التي احتج بها عليهم، فيكون ذلك داعياً إلى التوبة والاهتداء.

ويقول الله في القرآن في سورة صٓ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2] أي: ليتدبر أصحاب العقول آيات هذا الكتاب الإلٰهي المجيد، وما شرعه الله فيه من شرائع، فيعملوا به فيهتدوا ويسعدوا[3].

أختي المؤمنة:

وأدب التفكر:

التّفكّرُ كلمةٌ فيها معنى النّظر والتّفهم، وقد عرف الراغب الأصفهاني التفكر بأنه جولان قوة الفكر بحسب نظر العقل، ويستعمل الفكر في المعاني، وهو فحص الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها، ولذلك تقول اللغة إن الفكر هو إعمال النظر في الشيء، ولكن التفكر بالمعنى الأخلاقي الإسلامي القرآني هو أن ينظر الإنسان في الشيء على وجه العبرة والعظة، لتقوية جوانب الخير والصلاح، ومقاومة دواعي الشر والفساد.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.
(٢) سورة صٓ، الآية: ٢٩.
(٣) أخلاق القرآن، ج١، ص٢٢٠-٢٢٤.

ولذلك نجد المفسرين يتعرضون لمعنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(١) فيقولون في معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: لكي تتفكروا في أمر الدنيا وأمر الآخرة، فتتجنبوا ما يجلب عليكم البلاء والشقاء فيهما، وتعتصموا بما هو لائق بالمؤمنين من الأخلاق والمكارم، وتستنبطوا الأحكام، وتفهموا المصالح والمنافع المنوطة بها، فتأخذوا بالأصلح، وتبعدوا عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر ممّا ينفعكم.

ولقد جاء ذكر التفكر في القرآن الكريم عدة مرات، فقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وقال في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

وقال في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

والجزء الأخير من هذه الآية الكريمة وردَ مثله في سورة الروم، والزمر، والجاثية، كما ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في سورة النحل مرتين(٥).

كما جاء في سورة النحل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩، والآية: ٢٦٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣.
(٥) سورة النحل، الآية: ١١، والآية: ٦٩.

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١). وجاء في سورة يونس: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢). وفي سورة الأعراف: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣). وفي سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

ولو تتبعنا المواضع التي جاء فيها ذكر التفكر في القرآن الكريم، لوجدنا أن هذا الذكر يأتي غالباً بعد الحديث عن أمر أو مشهد يُثير في النَّفْس معنًى من معاني الإعجاب بالخير والفضيلة والميل إليهما، أو معنى من معاني النفور من الشر والرذيلة والضيق بهما، أو هكذا ينبغي أن يكون لدى الإنسان القويم، وهذا يؤكد لنا المعنى الأخلاقي القرآني لفضيلة التفكر، وهو النظر على وجه الاتعاظ والاعتبار، فالإنسان يتفكر في أمر المعاصي وأمر الطاعات، أو يتفكر في الصفات المهلكة والصفات المنجية، فيتبين حينئذ - أو هكذا ينبغي له أن يتبين - أهو متلبس بمعصية فينتهي عنها، أم هو سائر في طاعة فيزداد منها؟.

وكذلك يتفكر الإنسان في الفرائض والواجبات: أهو يؤديها أم يقصر فيها؟ ويتفكر في الصفات المهلكة: أهو متلطخ بشيء منها؟ ويتفكر في الصفات الجميلة: ما الذي يحتاج إليه منها؟ وهكذا.

وما أوسع المجال للتفكر عند تلاوة آيات القرآن، فإن وراء كل آية من الأسرار والإشارات والنفحات الشيء الكثير، واللائق بالمؤمن المتفكّر أن يردد الآية التي يريد التفكر فيها - كما ينصح الغزالي - ويعيدُها مرات ومرات، بتمعّنٍ وتدبّرٍ، فإنّ تحت كل كلمة أسراراً واسعةً، وقراءة آية بتدبر وتفكر وفهم خيرٌ من كثير القراءة بلا وعي(٥).

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٥) أخلاق القرآن، ج١، ص: ٢٢٦-٢٣٢.

obeikandi.com

البحث الثاني عشر:

أدبُ الاعتبار والاستبصار

أختي المؤمنة:

وفي الاعتبار معنى الإحساس بدلالاتِ الآياتِ، سواء أكانت حسّيةً أم معنويّةً، وفيه معنى التّأمّل والتّفكّر، ممّا يُربّي في نفس المعتبر فضيلة التّأثر بالعظة، والاستجابة للنّصيحة، والتقبل للتّوجيه، والإفادة من سابق التجارب، أو قائم الدلائل والمشاهد، وقد أمر القرآن الكريم بالاعتبار، فقال الله في سورة الحشر: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾(١) وربط بينَ العبرةِ ومواطنها المتعلقة بما خلقَ الله وأبدع في كونهِ من أشياء دالّة على قدرتهِ داعيةً إلى خشيتهِ، فَنَراهُ يذكر في سورة النّحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ﴾ ما في الكرش من فضلات الطعام ﴿وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾(٢). ويقول الله في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾(٣). ويقول في سورة النور: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾(٤).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى غزوة بدر في سورة آل عمران: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾(٥).

وجاء «تفسير المنار» فتحدث عن معنى الآية، ثم أشار إلى فضيلة الاعتبار التي ينوه بها كتاب الله تعالى ويوجه إليها، فقال فيما قال:

وجملة القول أن الآية ترشد إلى الاعتبار بمثل الواقعة المشار إليها - يعني:

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٦.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

obeikandl.com

غزوة بدر - التي غلبت فيها فئةٌ قليلةٌ فئةً كثيرةً بإذن الله، ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[١] أي: لأصحاب الأبصار الصحيحة التي استعملت فيما خلقت لأجله من التأمل في الأمور، بقصد الاستفادة منها، إلا لمن وصفوا بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢].

وقال بعض المفسّرين: إن الأبصار هنا بمعنى البصائر والعقول من باب المجاز، وقال بعضهم: يعني بأولي الأبصار من أبصروا بأعينهم قتال الفئتين، وما ذكرته أظهر، ولا أحفظ عن الأستاذ الإمام من هذا شيئاً، وإنّما تكلم عن العبرة فقال ما مثاله مبسوطاً مزيداً فيه:

وجه العبرة أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الكثيرة بإذن الله. وقد وردَ في القرآن ما يمكن أن نفهم به سنته تعالى في مثل هذا التأييد، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ويجب أخذه بجملته، بل هذه الآية نفسها تهدي إلى السّرّ في هذا النّصر، فإنّه قال: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣] ومتى كان القتال في سبيل الله - أي: سبيل حماية الحق والدفاع عن الدين وأهله - فإن النفس تتوجه إليه بكل ما فيها من قوة وشعور ووجدان، وما يمكنها من تدبير واستعداد، مع الثقة بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده.

ولقد عادَ الكتابُ المجيد إلى التنويه بشأن العبرة والاعتبار فقال في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤]. وجاء في «تفسير سورة يوسف» للبيطار أن أولي الألباب هم أصحاب العقول الراجحة، لأن أهل البصيرة والرؤية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، بعد التأمل في

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١١١.

حقيقتها وصفاتها، وأما الأغرار الغافلون، والظالمون المعاندون، فلا يمرنون عقولهم على الاستقلال في النظر، والاعتبار بما جرى على الأفراد والأمم، فلا يفيدهم النصح والتذكير، ولا سوء العاقبة والمصير[١].

البحث الثالث عشر:

أدبُ الفرح والسرور بفضل الله سبحانه

أختي المؤمنة:

نفهم من آيات الله تعالى أنّ الفرح في القرآن نوعان: مطلق ومقيّد، فالمطلق يأتي في مواطن الذم له والنّهي عنه والتّحذير منه، كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[٢].

والمقيد إذا قيد بالدنيا فهو أيضاً مذموم، لأنّه يجعل صاحبه ينسَى فضل الله ومِنّتَهُ كقوله في سورة الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٣].

أي: يائسون أو مكتئبون. وإذا كان مقيدا بفضل الله ورحمته فهو محمود مطلوب كقوله في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤].

وهذا النوع من الفرح بفضل الله هو الفضيلة الأخلاقية القرآنية، التي تجعل صاحبها يتسَامَى عن خسائس الألوان من الفرح، ويأخذ نفسه بالإقبال على الله، والفرح بما يأتيه عن ربّه من فضل وخير ورحمة، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

(١) أخلاق القرآن، ج١ / ١٣١-١٣٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ٥٨.

obeikandl.com

أي: بهذا الذي جاءهم من الله تعالى من الهدى ودين الحق فليفرحُوا، فإنّه أولى ما يفرحون به، وهو أفضل مما يجمعُون من حطام الدنيا، وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، ويؤيد هذا الفهم أن الآية التي سبقت هذه الآية تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ويروى أنه حينما قدم خراج العراق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جعل عمر يعد الإبل، فإذا هي كثيرة كثيرة، فجعل يردّد قوله: الحمد لله تعالى. فقال تابع عمر: هذا والله من فضل الله ورحمته، فرد عليه عمر قائلاً: هذا مما يجمعون، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

وقد تعرض ابن القيم لهذه الآية فذكر أن الله تعالى قد أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته، وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة سبحانه، فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بر، يكون فرحه بمن أوصل إليه ذلك أولى وأحرى، وفضل الله - كما قيل - هو الإسلام، ورحمته هي القرآن، وفضل الإسلام فضل عام على جميع أتباعه، ورحمته بتعليم قرآنه لبعضهم دون بعض فضل خاص، فالله جعلهم مسلمين بفضله، وأنزل إليهم كتابه برحمته، كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[3].

ثم قال ابن القيم: وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله ورحمته عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولا شيء أحق أن يفرح العبدُ به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة.

فأخبر سبحانه أن ما آتى عابدَهُ من الموعظة - التي هي الأمرُ والنّهيُ - المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه، وهو - أي: الجهل - أشد ألماً لها من أدواء البدن،

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٢) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٦.

ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن، وما أتاها من ربها هو الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر مؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح، لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

ويرى الإمام أن فضل الله هو الإسلام والإيمان، وأن رحمته هي العلم والقرآن، والله يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله، حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها ويسرها له، ففي الحقيقة إنما يفرح العبد بفضل الله ورحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان الفرح بالله والسرور به، فيفرح به إذ هو عبده ومحبه، ويفرح به سبحانه رباً وإلهاً، ومُنْعِماً ومُرَبِّياً.

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾(١).

فالله تعالى يخبر عن الشهداء بأنهم - وإن قتلوا في هذه الدار - فإنّ أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

وقد كان أحدهم يجاهد في سبيل الله، ليبلغ دعوة الله، فيضرب بالرمح في

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

جنبه حتى يخرج من الشق الآخر فيفرح بفضل الله عليه ويقول: الله أكبر فزت ورب الكعبة. وفي السُّنّة أنّ الشّهداء عند ربهم حينما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنعَ الله بنا لئلاّ يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلُوا عن الحرب. فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزلَ الله تعالى الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية. وهم فرحون بما هم فيه من الفضل والنعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله، لأنّهم يقدمون عليهم، ولا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم.

ويقول الله عز من قائل في سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾[١].

أي: إن الذين آتيناهم الكتاب، وهم قائمون بمقتضاه بلا تغيير، يفرحون بما أنزل إليك من القرآن المجيد، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، فالقرآن هو فضل الله الأكبر الذي يستحق أن يفرح به المؤمن.

ويقول الحق جلّ جلاله في أول سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾[٢].

ذكر أهل التفسير أن المشركين كانوا يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنّهم أهل كتاب، وقد تحقّق ما ذكرتْهُ الآياتُ، وهو انتصارُ الروم بعد هزيمتهم، ففرح المؤمنون حينئذ بتحقق وعد الله تعالى، لأن النّصر لا يكون إلّا من عند الله، وكان للمسلمين النّصر يوم بدرٍ.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٦. (٢) سورة الروم، الآيات: ١-٥.

هذا وينبغي للمؤمن حين يفرح بفضل الله ورحمته أن يحذر مكر الله سبحانه، لأنّ الفرح قد يجعل صاحبه ينسَى المنعم وهو الله، فيكون ذلك سبباً لسلب النعمة، ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ لا ينبغي له أن يفارقه الحذر، فالفرح متى كان بالله، وبما منَّ الله به، مقارناً للخوف والحذر، لم يضر صاحبه، ومتى خلا من الحذر ضر وأفسد.

وها هو ذا كتاب الله جل جلاله يشير إلى ألوان من الفرح المنحرف الضّار، فيقول في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(١).

أي: أن أهل الشرك والعناد والمعصية نسوا أوامر الله فأعرضوا عنها، وجعلوها وراء ظهورهم، ففتح الله عليهم أبواب الاستدراج والإملاء والإمهال، فأعطاهم من متاع الحياة ما يريدون، حتى إذا فرحوا بالأموال والشهوات أخذهم الله على غفلة، فإذا هم يائسون محرومون من كل خير. قال الحسن البصري: مَنْ وسَّعَ الله عليه فلم يرَ أنّه يمكرُ بهِ فلا رأيَ له، ومَنْ قُتّر عليه فلم يَرَ أنّه ينظر إليه فلا رأي له، ثم قرأ الآية السّابقة.

ويقول الله تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾(٢).

فالله سبحانه هو الذي يوَسِّعُ الرزق على من يشاء، ويُقتّره على من يشاء بعلم وحكمةٍ، وليس متاع الدنيا هو كل شيء، وليس هو الشيء المهمّ الذي يفرح به عباد الله، ولقد فرح الكفار بما أوتوا من متاع الحياة الدنيا على سبيل الاستدراج والإمهال، وهذا فرح في غير موضعه، لأن الحياة الدنيا بالنسبة إلى الدّار الآخرة قليلة حقيرة، والحديث يقول: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظرْ بِمَ ترجع**».

وجاء في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤. (٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾(١).

إن قارون طغى على قومه وبغى بسبب كثرة المال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾(٢) وكانت أمواله كثيرة، ترهق في حملها مجموعة من الناس الأقوياء لكثرتها، فلمّا رأى العقلاء من قومه ما بدا من طغيانه وبغيهِ قالُوا له واعظين ناصحين: لا تفرحْ بما أنت فيه من مال فرح البطر الأشر، لأنّ الله لا يُحبُّ هؤلاء الفرحين الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما آتاهُم وأعطاهُم.

وجاء في سورة غافر: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾(٣).

أي: تقول الملائكةُ يوم القيامة للمجرمين الكافرين من أهل النّار: هذا العقاب الذي تُلاَقُونه، إنّما هو جزاءٌ على فرحكم في الدنيا بغير الحق، لأنه فرح بغير فضل الله ونعمته.

وجاء في سورة المؤمنون: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٤).

أي: يفرحون بما هم فيه من الضّلال، وما أكثر أودية الضّلال، كل منهم في واد يهيمُون، لأنّهم يحسبون أنهم مهتدون، وهم في الضلال غارقون، ولذلك تهدَّدَهُم الله بقوله عقبَ ذلك: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾(٥).

إلاّ أنّ الفرحَ بكلِّ متاعٍ زائلٍ فرحٌ ناقص مبتورٌ، وقد ينقلب وبالاً على صاحبه في العاجل أو الآجل، وأمّا الفرحُ بالله وفضلِهِ ورحمتِهِ فهو الفرحُ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦-٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.
(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٤-٥٦.

الحقيقي الباقي! قال الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[١].

اللّهم هبنا الفرحَ بكَ، واصْرِفْنَا عن الفَرحِ بسواكَ، فنعم الهُدَى هُدَاك[٢].

البحث الرابع عشر:

أدبُ الزّينة والتّزين

أختي المؤمنة:

الإسلامُ دينٌ لا يُحارب التّزيّن أو التّمتّع، بل يعد ذلك شيئاً من فطرة الإنسان، أو يعدُّه غريزةً مفيدةً مثمرةً، إذا استقام صاحبُها وأخذ منه بالحظ المعقول البصير صار ذلك خلقاً يحمد ولا يعاب، فهو إلى حمى الفضائل أقرب أكثر منه اقتراباً من العادات.

والزّينة الحقيقية التي يتمتعُ بها المتخلّق البصير هي ما لا يُشينُ الإنسانَ في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأما ما يزينه في شيء من أحواله دون جانب آخر من أحواله فهو زين من وجه، وشين من وجه آخر، والزينة قد تكون زينة نفسية كالعلم والاعتقاد الحسن، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه.

ولقد تحدَّثَ تفسير المنار عن غريزة حب الزّينة وحبّ الطّيّبات فقال: لقد كانت غريزة حب الزّينة، وغريزة حب الطيبات من الرزق، سبباً لتوسع البشر في أعمال الفلاحة والزراعة، وما يرقيها من فنون الصناعة، وسائر وسائل العمران، وإظهار عجائب عالم الله وحكمته وقدرته في العالم ورحمته وإحسانه بالخلق.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٢) أخلاق القرآن، ج٤، ص: ٧٦-٨٨.

ولو وقف الإنسان عند ما تنبت له الأرض من الغذاء ليحفظ حياة أفراده الشخصية وبقاء حياته النوعية كسائر أنواع الحيوان، لما وجد شيء من هذه العلوم والفنون والأعمال. وهل كان ما ذكر في بيان خلقه الأول من أكل آدم وحواء من الشّجرة التي نُهِيَا عنها إلّا بدافع غريزة كشف المجهول، والحرص على الوصول إلى الممنوع؟ وهل كان ما ذكر من حرمانهما من الراحة بنعيم الجنة التي يعيشان فيها رغداً بغير عمل، إلّا لبيان سُنّة الله في جعل هذا النوع عالماً صناعياً تدفعه الحاجة إلى العمل ويدفعه العمل إلى العلم، ويدفعه حب الراحة إلى التعب، ويثمر له التعب الراحة؟.

والله تبارك وتعالى يُحدّثنا عن الزينة ويحببنا فيها عند وجودنا في المواطن المناسبة لها، ويحثّنا على التمتع بالطّيّبات، ويُقرّر أنها من صفات المؤمنين، ويدعو بني آدم جميعاً إلى هذا التزيّن والتّمتّع فيقول في سورة الأعراف:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢﴾[(١)].

فهو ﷻ يحببنا في التزين بالثّياب الحسنة والمظهر الجميل، عند دخول المساجد للصلوات، وفي صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، ويقول رشيد رضا في ذلك: التجمل بزينة اللباس اللائق عند الصّلاة - ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة وفي العيدين - سُنّة لا واجب. ولكن إطلاق الأمر يدل على وجوب الزّينة للعبادة عند كل مسجد، بحسب عرف النّاس في تزينهم المعتدل في المجامع والمحافل، ليكون المؤمن عند عبادة الله تعالى مع عباده المؤمنين في أجمل حالة لائقة به لا تكلف فيها ولا إسراف، فمن قدر بلا تكلف على عمامة وإزار ورداء، أو ما في معناها من قلنسوة وجُبّة وقباء، لا يكون ممتثلاً للأمر بالزّينة إذا اختصر على إزار يستر العورة فقط للرجل، وما عدا الوجه والكفين

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

للمرأة، وإن صحتْ صلاتُهُ فإنّ المقام ليس مقام بيان شروط صحة الصّلاة، بل هو أوسع من ذلك.

لقد شرع الإسلام كما رأينا التّزين للعيدين وليوم الجمعة ولصلاة الجماعة، وفي التّزين معنى التّمتّع المباح بالأشياء الطيبة، نعم يكره التّزين للمرأة المتوفى عنها زوجها وهي في عدّتها، ويكره لها التبخر والتباهي بالتّزين.

وفي سورة المائدة يشير الله تبارك وتعالى إلى لون من ألوان التمتع حين يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾(١) أي: متعكم الله به متاعاً حسناً، أو جعله لأجل تمتيعكم به.

وفي سورة هود يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾(٢).

أي: أن تستغفروا ربكم وتتوبوا إليه يمتعكم بكل نافع في المعيشة متاعاً حسناً مرضياً ممتدّاً إلى أجلٍ مسمًّى، وهو العمر المقدّر لكم في علمه.

ويقول الله في القرآن الكريم في سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(٣).

وليس المراد ذم هذه الأشياء أو التنفير منها أو النّهي عنها، وإنّما المراد - والله أعلم - هو التحذير من أن تجعل غاية الحياة فينشغل الإنسان بها انشغالاً يصرفه عن واجباته الأخرى نحو الله والنّاس.

جاء في تفسير المنار: الكلام في هذه الشّهوات بيان لِما فطرَ عليه النّاسَ من حبّها وزيَّنَهُ في نفوسهم، وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها، لا لبيان قبحها في نفسها كما يتوهم الجاهلُ، فإن الله تعالى ما فطرَ الناسَ على شيءٍ قبيح، بل خلقهم في أحسنِ تقويم، ولا جعل دينَهُ مخالفاً لفطرتِهِ، بل موافقاً لها كما قال:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وكيف يكون حبّ النساء في أصل الفطرة مذموماً وهو وسيلة إتمام حكمته تعالى في بقاء النوع إلى الأجل المُسمّى؟ وهو من آياته تعالى الدّالّة على حكمته ورحمته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢). وكان ﷺ يحبهنّ.

وكيف يكون حبُّ المال مذموماً لذاتِهِ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان؟ وهو تعالى ينهى عن الإسراف والتبذير في إنفاقه، كما ينهى عن البخل به، وقد امتنَّ على نبيِّهِ بأنّه وجدَهُ عائلاً أو فقيراً فأغناه، وجعل المالَ قواماً للأمم ومعززاً للدّين، ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه ومن أعظم أسباب التقرّب إليه تعالى.

وقد قال ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»(٣). ولا أراني في حاجة إلى الكلام في حب البنين والخيل والأنعام والحرث، فإن الشبهة فيه للغالين في الزهد أضعف.

فعلى المؤمن المتقي أن لا يُفتن بهذه الشّهوات، ويجعلها أكبر همه، والشّاغل له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد في الدارين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٤) (٥).

والحمد لله ربّ العالمين

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٣) رواه مسلم في صحيحه.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٥) أخلاق القرآن، ج٦، ص٦٦-٧٢.

الخاتمة

أختي المؤمنة:

هذا ما يسَّر الله تبارك وتعالى لي جمعَهُ وتأليفَهُ من هذه الأبحاث الهامّة؛ لكلِّ مسلمةٍ ومؤمنةٍ من واجباتها في عقيدتها وعبادتها ومعاملاتها وأخلاقها وآدابها من آيات القرآن الحكيم ومن أحاديث رسول الله الكريم ﷺ؛ لتكون نِبْرَاساً لكِ في حياتِكِ، وزاداً مباركاً في مسيركِ على المنهج الصّحيح الذي سارتْ عليه صحابياتُ رسول الله ﷺ، والتابعيات والصّالحات من هذه الأمّة على مدى تاريخها، فاذرسي أختي المؤمنة أبحاثَ هذه الواجباتِ مرّةً تِلْوَ المرّةِ لتكونَ ماثلةً في تفكيركِ واهتمامكِ وعنايتكِ، فإنّها خيرُ معينٍ لكِ في دِينكِ ودُنياكِ، وفقنَا الله تبارك وتعالى وإيّاكِ وجميعَ المسلمين والمسلمات لطاعته ولحُسنِ عبادته، فإنّه خيرُ مسؤول وأكرمُ مجيب، وهو حَسْبُنَا ونعمَ الوكيل، ونعمَ المولى ونعمَ النّصير، ربّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين.